وحلق الطائر

شريف عبدالكريم

إلى سعاد محمد عبد الرحمن

.. دائما تركضين فوق عشب ندي، تحت سماء كفت لتوها عن المطر، حولك عصافير صغيرة ملونة، بفستانك الأبيض المبتل وشعرك المنسدل للخلف، باتجاه شمس توشك أن تسطع.. وكلما ركضت خلفك، منعتني قدماي المغروستان داخل هذا المثلث من النجيل المترب.

أما محمود الورداني،

وشعبان يوسف،

فلا أقل من أعلن محبتي لكما هكذا على الملأ.

القسم الأول

هذه الطقوس اليومية

لم يكن الجنون قد أصابني بعد وأنا أبحث عن أحـــد يرمينـــي بالرصاص، أو سيارة مسرعة فأرتمي أمامها، أو قبـــر مهجـــور أدفن نفسي فيه بالحياة، فلا أجد سوى إخراج قلبي ــ ذلك الغـــض ــ من مكانه على يدي، وأقطعه بسكين وأنا أبكي تحت الـــصورة التي في الإطار.

ولم يكن في الأمر ما يشير إلي ما حدث، وأنـــا أســـير علـــى طقوسي اليومية كقطار لا يغادر قضبانه، منـــذ اســـتيقاظي فـــي الصباح أول ما أستيقظ، على صورة لأمي "أبيض وأســـود" فـــي إطار على جدار الحجرة توارثتها منذ زمن، فاعتـــدت أن أنحنـــي أمامها، وأمد يدي لأقبل ظهر يدها الممدودة على ركبتهـــا متـــى تفتحت عيني، مستشعراً في وجهها الملتف بالسواد ذلـــك الـــدفء والرضا، ثم مروري اليومي على حـــانوت بالـــشارع، يعـــاملني صاحبه برقة ومودة. ألقي تحية الـــصباح حـــارة، فيردهـــا بـــود حقيقي، ويناولني بشكل آلي ــ كأنه ينتظرني ــ الأهرام وعلبـــة السجائر ومشط الكبريت وعلبة المناديل، ويجهز لي في عـــودتي،

ككل يوم، نصيبي من الجبن والبقالة ليوم واحد. استرحت لأنه يعرفني جيداً ويعرف ما أفكر فيه ربما قبل أن أطلبه.

أُصر ـ ليس لضيق الوقت أو اللهوجة ـ أن أنزل وحذائي غير ملمع، لأمر علي عفيفي الجالس بصندوقه على ناصية الشارع. أعبر له الطريق من الحانوت فيتلقفني ويبتسم. أعلم أنه يستفتح النهار بهذا الحذاء. وجرياً على طقوسي المعتادة، أضع قدمي بالحذاء على الصندوق، أطالع عناوين الجريدة والصفحة الأخيرة، دون أن أفكر يوماً كأي أحد أن أشتري من الحانوت ذلك الورنيش السائل والسريع، لأنه يجذبني بهذا الشوق في نظرته، وابتسامته الودودة كأنه لم يرني منذ زمن، ورفضه المتكرر أن يتقاضى أجره، وإصراري الدائم الذي يشعرني أن تلك السيجارة تعوقني فأجذب منها نفساً سريعاً وأرميها في منتصفها، لأنه بعد أن يدهن و يلمع ويجس ببطن ساعده ـ ذلك الذي اسمرّ ـ جلد الحذاء، يكون بالفعل قد أدى ما يستحق عليه الأجر، فيبوسه عدة مرات قبل أن يضعه في جيبه.

ولعل أكثر أسباب فشلي في الخروج عن هذه الطقوس، كوب القهوة الإجباري الذي أشربه أمام دكان صديقي صابر للدواجن، الذي يجذب كرسياً لي وينادي على أي ولد من المقهى المقابل لإعداد القهوة في كوب، حتى أن صاحب المقهى اعتاد أن يبدأ في

صنعها حال انتهائي من عفيفي وقبل توجهي إلى دكـــان صـــابر. صرت أهم أصدقاء صابر منذ اكتشفت إصابته بالدرن الرئـــوي، وصار يتوقع أن تفاجئه نوبة نزيف من الرئة فيموت على إثرهـــا كأخيه الأصغر رجب، لكنني كنت أطمئنه كل يوم بنفسي.

توطدت الصداقة، وأصبح من طقوسي اليومية أن أنظر إلـــي الشرفة المقابلة، فأجد يمامة تنشر في هدوء كل صباح بطانية، أو تلم هدوماً منشورة من الأمس، أو تروي وروداً في أصص فخار مثبتة بحديد الشرفة، نضبط أنفسنا متلبسين بالنظر في وقت واحد: هي إلى الكرسي الذي يجذبه صابر لي أمام الـــدكان، وأنـــا إلـــي وجهها الملائكي وشعرها المسترسل على صدرها النـــافر تحـــت ثوبها المنزلي، فتدخل مسرعة ومحرجة.

لا أعرف منذ متى بالتحديد بدأت أحافظ على طقوسي اليوميـــة تلك قبل ذهابي إلي المستشفى، يشدني إليها شيء مـــا لا أســـتطيع الفكاك منه، حتى بعد أن مرض صابر بالفعل وتـــدهورت حالتـــه وقال بعتاب: "مش قلت لك؟". كنت أمر على ســـريره كـــل يـــوم مهوِّناً الأمر بينما أقرأ في عينيه ما لا تقوله شفتاه، فأربت كتفـــه وآخذ بالي من أسرته وأطفاله الذين اعتادوا جلوســـي الـــصباحي لدقائق على الكرسي المقابل للمقهى والشرفة، وكنت أختلس النظر إلى باقي الهدوم المنشورة التي تركتها ودخلت، دون أن أنتبه إلى

أنها التي تعبر الطريق إلا من بصتيها اللتين سددتهما نحوي بينما تسدل الإيشارب على الشعر الذي كان مكشوفاً في الشرفة منذ قليل وتحكم العقدة على الرقبة والصدر، ولم أعرف من حبات العرق النظيفة على الوجه والرقبة إن كانت "صباح الخير" لأم صابر فقط أم للجميع، حتى سألتها إن كانت قد انتهت من تجهيز طلبها، فعرفت وتسارعت دقات قلبي الذي أحس أن سؤالها الخجول ربما يخصني: "الأستاذ صابر عامل إيه دلوقت؟" قلت: الحمد لله، يومان ويخرج، فأخذت الفرخة وعبرت الطريق ولم تظهر في الشرفة.

لم يكن ما اعتراني من نوبات الضيق والبكاء لأن صابر مات لسبب آخر غير الذي كان يتوقعه، ولا نظرات التسليم في عينيه وهو يوصيني بطفلاته الثلاث، ولم تكن هذه الدموع التي في عيني لظهور اليمامة في الشرفة هذا الصباح بصحبة زوج كان غائباً وطفلة صغيرة، أو لأنني اكتشفت هذا الصباح فقط أن عفيفي، ذلك الجالس علي ناصية الشارع بصندوقه الخشبي، له أب فُقد في سبعة وستين، ولم يكن قد أصابني الجنون بعد حين اكتشفت ذلك الاكتشاف المفجع أن صاحب الحانوت والذي أتعامل معه بانتظام من ثلاثة وعشرين عاماً، كان هو قاتل أبي.

لم يكن الجنون قد أصابني بعد، حين كنت أبكي بالفعل وأنا

أبحث عن أحد يرميني بالرصاص، أو سيارة مسرعة فأرتمي أمامها، أو قبر مهجور أدفن فيه نفسي بالحياة فلا أجد، فأستخرج قلبي ـــ ذلك الذي لم يعد غضًّا ـــ من مكانه على يدي وأقطِّعه بسكين وأنا أحدق في صورة أمي التي في الإطار، لأكتشف للمرة الأولى وأنا أجهش بالبكاء، حين ضمتني يدها الحانية التي امتدت من الإطار لتخمش رأسي وتربت كتفي، أن الكتابة الصغيرة تحت الصورة التي في الإطار تقول إنها تحية: أرملة الزعيم.

هيـــمة

أخرجني اتصال سعاد من استغراقي في تأملهم من أعلى، وهم في ذات البقعة، يتابعون في حيرة كلام زينهم المتدفق وأصـــابعه التي تشير: تذاكر هنا.. سكر وأسنان وعضم ومعمل كده.. نـــسا وأطفال وجراحة فوق. يتخلصون رويداً مـــن القلـــق، وتـــستحيل الحيرة على ملامحهم المريضة إلى ألفة عندما يـــسلمون التـــذاكر للممرضات، ويمضون الوقت ــ إلي أن تُنَادَى أسماؤهم ــ فـــي التطلع من الطرقة إلى الفناء والمبنـــى ذي الطـــابقين والـــسلالم، ويعيدون قراءة اللافتة الرئيسية وملصقات التوعية الصحية. كـــان بالإمكان تمييزهم بسهولة من بين أولئك الـــذين ينحرفـــون بعـــد البوابة رأساً إلى التذاكر ثم يتوجهون بآلية إلى أهدافهم.

لابد أن سعاد كانت تتصل من الشارع، لأنها قالت إنهـــا الآن ذاهبة إلي عملها، وإنها أخذت هيمة إلى المدرسة، وظلـــت معـــه حتى دخل الفصل. كانت تُلمِّح إلى أن أمر عليه وأصـــطحبه فـــي عودتي إلى البيت. نبرتها المتعجلـــة وضـــغطها علـــى مخـــارج الحروف كانت تشي بأن عملي الذي قد يمتد إلى ما بعد المواعيـــد الرسمية، مهما كان عدد الحالات، لابد أن ينتهي اليـــوم مبكـــراً،

فالقيامة لن تقوم إذا لم أستمع باستفاضة لشكوى كل مريـــضة، أو تدخلت بالمقاطعة لتغيير مجرى الكلام، أو كففت عن الاستفـــسار عن أشياء أرى دائماً أنها هامة، ودخلت مـــن ثـــم إلـــى وصـــف العلاج. تصاعد الصهد من خدي الأيسر، وانتفخ كرغيف، حتـــى أن هويدا سألتني بشكل مباشر، فقلت باقتضاب:

ــ أصل أنا قلقان على الواد.

ولابد أنني كنت قلقاً بالفعل، لأنني كلمـــا قمـــت إلـــي ســـرير الفحص مع حالة، كنت ألبس نظارة الخـــروج أو أجمـــع بـــشكل وهمي مفاتيحي وهاتفي المحمول، أو أضع القلم في جيب الـــسترة الداخلي. تتعجب هويدا، فأعيد كل شيء إلي مكانـــه متنهـــدا: إن الولد طيب جداً يا هويدا وهذا أول يوم يخرج فيه وحده، ولم تقـــل أمه أين أجلسته. قالت هويدا وهي تضع التذاكر أمامي، إنه علـــى كل حال في الفصل الآن وأمه أوصلته، ولن ينـــصرف الأطفـــال قبل الواحدة من المدرسة. تنهدت مرة أخرى وأمسكت التذكرة:

ــ خير يا ستي .. مالك؟

كان فناء "الوحدة العربية" واسعاً جداً، والنخلتان اللتان حـــدثني عنهما فهمي واقفتين، متجاورتين ترتكز عليهما سبورة خـــشبية، وبالقرب منهما سارية للعلم، وأشجار الجازورين داخـــل الـــسور، والعيال يتناقصون كلما نادى المعلم أسماءهم من الكشف الذي في

يده، والفناء يصير أكثر اتساعاً بينما أتأمل النخلتين وأشجار الجازورين وصخب العصافير على العلم والجرس وزجاج الفصول المدهون بالأزرق تقطعه علامة إكس. هوى الكف على صدغي، فدار الفناء بالأشجار وارتطم النخيل بالشبابيك وانبثقت النار من وجهي. كان الكف مباغتاً والفناء خالياً إلا منِّي ومنه والكشف الذي بيده:

ـ يا حمار مش اسمك محمد زفت؟

تصاعدت أسراب النمل إلى صدغي وأنا أطل على الفناء، تلك البقعة التي خلف البوابة، والتي تشهد حيرتهم بين الدخول يميناً أو يساراً أو إلى الأمام، والتي تشهد أكثر ما تشهد إشارات زينهم لهم في كل الاتجاهات ولهجته التي صارت كنداءات الباعة غامضة وسريعة. يدهشني ذلك الحاجز الذي لا ينمحي تماماً إلا بخروجهم من هذه البوابة، إذ يتحدثون بوضوح وانطلاق على طول الطريق الزراعي، وكلما تخطيتهم أجدهم في المرآة يشيرون بحيوية وهم يخبئون رءوسهم تحت مظلاتهم المفرودة من الشمس، وحين أسمع لغطهم الحيوي أتأكد مرة أخرى كم نحن مقبضون رغم معاطفنا البيضاء، تماماً كما أن هذا المكان جهمٌ ومقبضٌ. قالت هويدا:

ـ التهاب اللي ف وش حضرتك ده واللا حساسية؟

لم يكن ثمة سوى دكة أخيرة، أوصلتني إليها الدفعة التي أعقبت الصفعة، والتي كانت قوية بما يكفي لأن أتعثر وأكاد أنكفئ في اندفاعي من باب الفصل الذي عرفت فيما بعد أنه فصلي، ماراً بين الدكك المشغولة متخبطا في عيون كثيرة تحدق في دهشة: خدوه جنبكم رابع. اتسعت الدكة علي مضض بما يسمح لوضع فخذي الأيسر. التصقت بالولد، لكنني كنت منتبها إلى زفراته ولكماته من تحت الدكة في جنبي وهمسه المتكرر بضيق "اتّأخر كده".

مر الدكتور عبد العال من أمام الحجرة، وألقى التحية على عجل، ودخل بجسمه من الباب:

ــ شفت يا سيدي العيال البايظين.. شدُّوا لنا أعصابنا والآخر..

قاطعته مبتسماً:

ــ يتغلبوا واحد/ صفر!

لم أتفرج على المباراة، لكنني كنت أعرف هذه النتيجة مسبقاً، ليس تكهُّناً، لكنني منذ اللحظات الأولى كنت متيقناً أننا سنُهزم، ليس تكهناً ولا حدساً، إنما يقين خالص، فلقد كنت أعرف من نزول اللاعبين إلى الملعب، وأول ثلاث دقائق كيف ستنتهي المباراة، فأغلقت التليفزيون.

لم يعد لدي شك في أن سعاد كانت تلمِّح إلى انتهاء دورها عند هذا الحد، لأتحمل مسئوليتي في إعادة إبراهيم إلى البيت، فقد كانت مكالمتها متعجلة ومختصرة. لم تكن مستعدة ــ فيما يبدو ــ للخوض فيما إذا كانت قد دخلت بالولد إلى الفصل واطمأنَّتْ على جلوسه، فحملت أشيائي مرة أخرى وسرت باتجاه الباب منتوياً الاعتذار لمريضاتي، لأنني قلق جداً على الولد، والذي لا أعرف في أية دكة جلس، لكن هويدا أكدت لي أنه جلس في المنتصف في الدكة الثالثة، وقالت إنه في أولى تاني، ألم تقل لك المدام ذلك؟ فتحسست خدي الملتهب، وتراجعت عن الخروج ونظرت في التذكرة التالية وقلت لها:

ــ أصل انتي ما تعرفيش غلاوة إبراهيم عندي.

جاء بعد خمسة عشر عاما من موت يارا. سبقته فترة من العقم غير معروف السبب، ثم جاء هكذا وحده، دون علاج، وبعد أن توقفت عن إعطاء سعاد العلاج، ومنذ ذلك التاريخ وأنا أغير سياستي في علاج العقم. مسكت التذكرة وقلت: خير يا ست الكل؟

ــ متجوزة من خمستاشر سنة وماعنديش أطفال.

سقطت عن حافة المقعد مرة واحدة بينما كان المعلم يدير ظهره ليكتب الحروف، فالتفت عيال الفصل كله. أغمضت عيني. لم تستطع قدماي تحمل ذلك الوضع فسقطت، وتناثرت أدواتي.

لفترة ظللت راقداً على الأرض متوقِّعاً نزول العصا على جسدي من المعلم الذي جاء، لكنني حين فتحت عيني وجدتها تهوي على جنب الولد الذي بجواري:

ـ يقعد ازاي كده؟ اتّأخر له!

تزحزح الولد لكن كوعه لم يكف عن الزغد، وبدا أن الأستاذ لمحه، فأعاد في نهاية الحصة ضرب الثلاثة وبص لي:

ـ لو زنقوك قل لي!

لا أعرف كيف مر اليوم والثلاثة يهددونني بعد الانصراف ويجبرونني على الوقوف في الفترات التي بين الحصص، وكنت كلما أنظر إليهم تعتريني الهيبة والخوف، متمنيا ألا يدق الجرس، لكنه دق دقته الطويلة وهاج العيال وعكس ما كنت أرتب للخروج متأخراً، كان الثلاثة يدفعونني للخروج قبلهم، وكنت قد رأيت في عيونهم ذلك التصميم الغريب علي إيذائي، فتسارعت دقات قلبي وجف ريقي. خارج الفصل، وفي الفناء بدأ الضرب، متفرقاً، وأنا أتّقي ضرباتهم بالإسراع لكنهم كانوا يتتبعوني أينما ذهبت. كان الأمر مثيراً للرعب وصدغي ما زال يهب صهداً من صفعة الصباح الحادة، والدفعة العنيفة في ظهري، ولم يكن أمامي سوى ما فعلت، لا إرادياً انطلقت ساقاي إلى الأمام وبأقصى سرعة، يحدوني أمل في الإفلات من ذلك العدوان، غير أن وقع أقدامهم

تسارع خلفي. جذبوا الشنطة فتعثرتُ، وجاءتْ لكماتهم من أكثـــر من اتجاه. من الذي لمَّ كتبي المبعثرة؟ ومن الـــذي أخـــذني إلـــي الدار، ومن الذي جعلني أمرض في اليوم التالي وأتباطأ في النـــوم كي لا أذهب إلى المدرسة، فتصر أمي علـــى الـــذهاب، فأذهـــب وحدي متأخراً وما أن أدخل من البوابة حتى أتوه ويتـــسع الفنـــاء وأتقافز أمام لسعات العصي التي تستحثني على الإسراع، دون أن أدري وبعد آخر عصا من معلم الفصل أجد طريقي مفتوحاً إلـــي الدكة الأخيرة، الجالس عليها ثلاثة الأمس دون أن يحاول أحـــدهم أن يتيح لي مساحة، ووسط صرخة الأستاذ: "اجلس يـــا حمـــار" أتخيل أنني أجلس يلاصق جنب مقعدتي حرف المقعد لا أكثر.

ــ دول عيال ولاد كلب ما يستاهلوش، حرقوا دمنا وخلاص.

كان عبد العال يطل بجسمه من النافذة وهـــو ذاهـــب ليـــصلي الظهر، فابتسمت. كنت قد ركزت على نظراتهم وهـــم يـــدخلون أرض الملعب، وبطئهم في قراءة الفاتحة وهم في وسط الملعـــب قبل البدء، وجريهم بالكرة وهم ينظرون في الأرض، وشـــعورهم بالخيبة لحظة التسديد البعيد، فأغلقت التليفزيون. التفت عبد العـــال وقال معلقا على ابتسامتي اللامبالية: يا رايق انت! ولم يكـــن مـــا قاله صحيحاً، فأنا منذ فترة طويلة فقدت رغبتي في التفرج علـــى المباريات، فقط الدقائق الأولى، حيث ينصرف اهتمامي كلياً إلـــى

المشاعر التي تلي المباراة، لحظات الخروج من الملعب، النظرات المتحسرة وهم يتقون بآذانهم صيحات الجماهير، والهروب كأسرى من تتبع الكاميرات والفلاشات، حيث لا معنى حقيقي لكلمة مثل: الرياضة غالب ومغلوب. نصحتُ السيدة بالامتناع عن العلاج لثلاثة أشهر، وذكّرتُ عبد العال برأيي الذي يعرفه:

ـ مش التعادل برضه كان احسن؟

كان قد ملّ من عشقي لحالات التعادل، وما يليها من حالة غامضة من الرضا، بين الفرح والحزن، وكنت أعرف أنه سيشيح بيديه خلف رأسه وهو خارج من البوابة بضيق ويقول:

ـ والنبي كفاية فلسفة!

لم يكن هناك من بُد ـ تحت وطأة الهواجس التي ظلت مسيطرة عليّ طول الوقت ـ أن أقرر الانصراف معتذراً للناس، الذين لاحظوا أنني قلق بالفعل، وأن أذهب إلى الوحدة العربية التي كنت بها قبل أربع وثلاثين سنة، قبل أن ينتهي اليوم الدراسي، لأرى بعيني إن كان إبراهيم يجلس على دكة في الفصل أم لا. في خطوات قليلة، اجتزت الفناء، ارتفع كثيراً عن الماضي أو غاصت الفصول ذات الطابق الواحد، ولم تكن النخلتان عاليتين كما كنت أتوقع، وحل محل سور الجازورين صف من نباتات

الجارونيا المورقة، وتشابكت أغصان الياسمين في قوس أعلى البوابة، وبدت شرفات البيوت المطلة على الفناء قريبة جداً، وحين دخلت إلى ذات الفصل، دمعت عيناي، ففي ذات الدكة الأخيرة، كنت أراه يجاهد كي يضع ساقه النحيفة بجوار الثلاثة الذين بدوْا كأنهم استراحوا لهذا الوضع. كنت أكثر من شعر بآلام هيمة وأنا أوقظه في صباح اليوم التالي، حين وجدت حرارته مرتفعة، وكان صامتاً، وعيناه تنظران نحوي بتوسل وضعف، ووحدي كنت الذي أعرف ــ لا أمه ــ أنه لا يود الذهاب إلى الوحدة العربية في اليوم الثاني.

طعم الليمون

تأتيني يارا دائماً بعينيها الواسعتين صريحة، ووجهها القمحي بريئاً وضحوكاً، تركض حول أشجار الليمون وتمرح منتشية. تقول: امسك يدي. وتشدني، فأبدو سعيداً وعجوزاً ومرهقاً. أُخرج من جيبي مشطاً وشريطاً أصفر لألمّ شعرها المنسدل فأحس بقلبها الصغير فرحاً ومتقافزاً. تعاود الاختباء بين الأشجار وتقول: امسك يدي يا بابا. وحين يستحيل الجو مظلماً، أسمع صوتها مرتاعاً وبعيداً، وتكون يدها الصغيرة قد انسحبت لتوها من بين أصابعي. أقبض يدي بشدة وأصرخ: يارا.. يارا. فتهزني زوجتي وتضيء النور لتناولني الكوب. أنتبه محدقاً في الماء، أرده بإرهاق، فيما أكون محتاجاً لكوب من الليمون. تحكم الغطاء حول نفسها وتعود للنوم. في الصباح قالت إن صحتي لن تتحمل ذلك، وإنني طبيب وأعلم أكثر منها أنني ربما احتجت إلى استشارة طبيب نفسي، إذ لا يمكن لأي شخص أن يستهلك كل هذا الليمون. وبكت، لأن رائحة الليمون لم يعد بالإمكان إزالتها من الأطباق والأكواب والملابس، وأن يارا التي تجيئني كل ليلة ماتت قبل

السبوع لسبب لا نعرفه، وأن خمسة عشر عاماً قـد مـرّت ولـم يمنحنا الله أطفالاً، فلماذا لا أريد أن أصدق. بكت بانفعـال دون أن تفطن إلى وجود صديقي الذي استأذن مرتبكاً، وعند الباب التفـت مؤكداً:

ـ الغدا يوم الخميس عندنا.. وفاء مُصرّة.. لا تنسوا.

وفاء طفلته الوحيدة، في عمر يارا، تحب الليمـون وترتمـي فوقي بكل براءة لتمنعني من الانصراف حين تراني متعجلاً فـي شرب الليمون، أو ناظراً في ساعتي. أستنجد بصديقي فيبتسم فـي شماتة رافضاً التدخل. أضربها بظهر يدي مستمتعا بالفرقعة على صدرها الصغير الذي يرفع الثوب بلا سـوتيان، فتعيـد الهجـوم مبتهجة برضوخي أمام ضحكها الجذل وشعرها المنسدل للخلـف، فلماذا لا ترتمي في صدري أكثر، لألم شـعرها المبتـل بـالعرق بشريط أصفر وأحس بقلبها المتقافز، تلك البنت التي تكبـر كـل يوم، مازجة طفولتها بالأنوثة بينما ينتابني الوهن؟

ضغطت الجرس فأحسست بوقع أقدامها المسرعة وضـحكتها المشرقة وهي تتعلق برقبتي وتضم ساقيها حـولي. خرجـت الأم من المطبخ مرحبة بنا وصرخت:

ـ وفاء يا مجنونة.. عيب.. عمك تعبان من السلم.

همست زوجتي بأن وفاء كبرت، ولا ينبغي أن أسـايرها فـي

الهزار بهذا الشكل. سألتها ــ مستغرباً من حبها لإفساد كل لحظة جميلة ــ إن كانت تشعر بالغيرة. ردت في برود:

ــ لا أغير.. والأم حين قالت عيب لم تكن تقصد وفاءوحدها!!

أفسدت اليوم الجميل بملاحظتها السخيفة، وأعادت سؤالها الجارح عن الليمون:

ــ قل لي سبباً واحداً يجعلك تحب هذا القرف!!

لم يكن وحده الليمون، كان الخوخ نيئاً وصغيراً، وقطوف العنب خضراء ومدلاة، والجميز غير المختن والنبق والبلح الصيص الذي يشلبن اللسان في أيام الصيف. لم يكن وحده الليمون. والبداية ربما كانت بعيدة فعلاً ويصعب تحديدها، لكن الكوب الذي أعدته البنت وفاء نبهني لطعم قديم ورائحة بعيدة وبدائية، وعطش لا يرتوي إلا به. لم أكتف بباعة الليمون، فاهتديت إلى أماكن زراعته، أمضي العصاري بين أشجاره، تتغلغل الرائحة في جسدي وملابسي، فأقطف الأخضر والأصفر الناعم، أشطره بأسناني وأمتص عصارته حادة ولاذعة. أحببت البذر والقشر بمرارته، واستطعمت الفاسد وهى تجمعه من الثلاجة فصرختْ:

ــ لم تعد هذه شقة!

لم تمرض يارا ولا بكت، وفى سبوعها كانت تنظر إلينا

مفتوحة الفم والعينين كأنها تريد أن ترضع، حتى أنها ألقمتها الثدي وكنت أوقد الشموع في انتظار هانم فودة لتكحل العينين، وترش الملح، وتنثر الحبوب السبعة في أركان البيت لكنها لم تحضر، فانقبض قلبي واضطربت زوجتي لاحتباس اللبن. هززت يارا فكانت شاحبة وممتلئة، وخطفتها أمي في لهفة و بكت:

ــ البنت ميتة وشبعانة موت يا بنى!! حرام عليك..؟

سقطتْ من يدي فقمت مفزوعاً. قلت إن يارا كانت تلعب هنا حولي، وأشرتُ إلى أشجار الليمون. كانت تمرح منتشية وربما لم تنتبه للبئر. صرخَت، فمددتُ يدي، تلامستْ أصابعنا بالفعل وهي تحاول التشبث بكفي، لكنها سقطت ولم يعد بمقدوري نسيان الذعر في عينيها، أو توسل الأصابع الصغيرة ذات الأظافر وهي تتشبث بكفي. راعني وجود بئر بهذا العمق في حقل ليمون صغير فظللت أصرخ: يارا.. يارا.. حتى أفزعتني شمس العصاري نافذة من الشباك المغلق، فيما لم أتعود النوم في الظهيرة. ناولتني كوب الماء فرددته بعنف:

ــ أين الليمون؟

ارتفع نشيجها وهى توقظني:

ــ ليس وقت الليمون.. قم.. وفاء ماتت.

انتفضتُ واقفاً غير مصدق، فأشارت إلى الخارج:

ــ اسمع الميكروفون!

كان يحتضن ابنته في ذهول ويهزها كأنه يرجوها أن تستيقظ:

ــ وفاء.. وفاء.. ردى على بابا يا حبيبتي.

كانت ممددة في استسلام كأنها نائمة، مبلولة الشعر كأنها خارجة من حمام، بينما كانت الحجرة معبقة برائحة الليمون. خامرني شعورٌ أنها ستفتح عينيها وتعاتبني فأدرتُ ظهري وبكيت. كانت في عيادتي أمس مع أمها، لم تتعلق برقبتي ككل مرة وإن احتفظت بنفس المرح. قالت الأم إن الزيارة بخصوص وفاء، دورتها الشهرية منقطعة، بلعت ريقها بصعوبة وسكتت. أشرتُ إلى سرير الفحص، فهجمت رائحة الليمون بشكل مفاجئ، وبدا صدرها كبيراً وبارزاً، فيما ظهر الانتفاخ أسفل البطن واضحاً. سألتها إن كانت تشعر بدوخة أو غثيان أو تميل إلى النوم والكسل والهبوط، فهزّت كتفيها مستغربة وغير فاهمة. بلعت ريقي وأبلغت الأم، فخبطت صدرها وصرخت:

ــ يا سنتك السوداء يا وفاء.. حامل!

وقتما ترد على بالى يتشبع الجو برائحة الليمون، وأتوق لرؤيتها. أندفع تاركاً خلفي كل شئ. ببراءة تقطع استحمامها وتفتح الباب كأنها تتوقع حضوري:

ــ أهلاً.. أهلاً.. تفضل يا عمى.

أبدى تراجعاً حين أشعر أنهــا وحــدها، فتــشدني مــستغربة ومبتسمة:

ــ ادخل يا أخي.

وتستأذن لتكمل حمامها، فيما أسمع رشرشة المياه على الجسد، وغلق الصنبور، وحركة الفوطة، ووقع أقــدامها الــصغيرة فــي الطرقة قادمة من الحمام. على كنبة أمامي مشطت شــعرها فيمــا ازداد عبق الليمون، وكان ثوبها المنزلي رقيقــاً ومرتفعــاً أمــام نهديها الصغيرين. قالت إن أباها لن يتأخر، وأمها في السوق. ثــم لمت شعرها بشريط أصفر وابتسمتْ، فبان جبينها مشرقا:

ــ سأعصر ليموناً.

كنت أرى انبثاق الأنوثة من الطفولة، فــوددتُ لــو أضــمها، لكنني تذكرتُ ملاحظة زوجتي فقمتُ واقفاً. قالت مندهشة:

ــ والليمون يا عمي؟

وبينما كنت أصفق الباب خلفي، كان الكوب في يدها وهي تهز رأسها متعجبة.

رغم ضربه المباغت والموجع وصراخها المتألم، لم يتلــق رداً على سؤاله الملح عن الفاعل، وفشلت الأم فــي الوصــول إلــى الحقيقة عندما اكتشفت أن البنت لا تفهم ما يقصدونه. ســألني إن كان استحمامها مكان أمها يعد سبباً، فقلت إنه احتمــال ضــعيف

لكنه وارد، خاصة وأن عذريتها لم تزل سليمة. قال إنه يـــشعر أن ابنته سُرقت، ولا يدرى كيف يتصرف، وأن الحل ربما يكون في يدي، رفضتُ ما يلمح إليه:

ــ تعلم أنني لا أجرى عمليات إجهاض.

كان صوت الميكروفون واضحاً، وكنت مأخوذاً لا أصـــدق أن ينتهي الأمر على هذا النحو المفجع والسريع. أشعر بالخجل أمـــام جسدها المسجى دافئاً ومضمَّخاً بالليمون، عليـــه آثـــار الـــدموع والضرب المبرح. يداهمني يقين بأنني تخليت عنهم بالفعل، وأنهم أجبروني علي الكذب، حين اتفقوا على مداواة جرحهم بطـــريقتهم، فشربت وفاء السم بنفس الرضا والبساطة كما تـــشرب الليمـــون، لأكتب في تصريح الدفن أن سبب الوفاة انفجار مفـــاجئ بالزائـــدة الدودية.

منطق آخر للجدل

كان أمراً عابراً، لكنهن دفعنني إليه بجلستهن الغريبة، تلك اللاتي يحطن بها صدورهن بسواعدهن المضمومة، كأنهن يحافظن على شيء ثمين، وحركات أيديهن التلقائية للتأكد من قفل أطواق ملابسهن، وهواجسهن الدائمة أن أحداً يتلصص على هذه المنطقة أو يسدد بصره نحوها. وربما دفعني إليه ما وصلني من تصورات عن اعتقادهن بذلك.

كان أمراً عابراً، لكنه عنّ لي أن أطرحه للخروج من اعتلال المزاج الذي أعاني منه، وتمضية لما بقي من محاضرة مملة في التوعية بمخاطر الإنجاب، بيد أنني انسقت ــ لا أعرف لماذا ــ لإقناعهن بما قلته عن أن الثديين ليسا سوى غدتين لإفراز وتخزين اللبن، غير أنهن يستخدمنهما في غير ما خُصِّصا له، وقلت إنهن ربما لا يعلمن أن هذه المنطقة لا تختلف عن أي جزء آخر من الجسم، ولا تبدو في الحقيقة مثيرة للانتباه في فصائل الثدييات والمجتمعات العارية والقبائل البدائية، وأضفت أن الأمر

برمته لا يعدو غير خدعة العرض والإخفاء التي كان على الرجال أن ينتبهوا إليها.

كنت منساقاً بشكل غريب، ولم أكن لأرضى سوى بتسليمهن التام، فرحت إزاء صمتهن واتساع أعينهن أسوق الأدلة، مستنداً في إثبات مقولتي إلي لباقتي وقدرتي على الإقناع، وشاحذاً تاريخي الطويل في توصيل ما أريد قوله وقتما أريد وكيفما أريد، مشيراً بصراحة، ودون أن أحدد، إلى ثلاثة في هذه القاعة متوهجات يعتبرن أن أنوثتهن تتمثل في الجلوس بالملابس الداخلية، والتبول – حين لا يراهن أحد – واقفات، والنوم على بطونهن، دون أن تشير إحداهن إلى صدرها النموذجي. واتخذتُ من اعترافهن ذريعة للوم أربعة ذوات أثداء ضامرة، يضعن قطناً خلف حمالات صدر مبطنة، ويفرحن مؤقتاً أثناء الحمل والرضاعة حين ينتفخا باللبن، ثم يعدن للاكتئاب والحشو بالقطن بعد الفطام. وإمعاناً في توضيح الأمور أشرت – ولم يكن يجب – إلي أن اثنتين هنا على الأقل قد أزالتا ثدييهما جراحياً، وأنهما طبياً ما زالتا كاملتي الأنوثة إلا في نظر زوجيهما.

اعتبرت صمتهن موافقة، واسترخاء أذرعهن المضمومة وجلستهن المفرودة وعيونهن المفتوحة تواطؤاً على الخروج قليلاً عن موضوع المحاضرة، والخوض في أمور كهذه بشكل

تفصيلي، وقد بدونْ ـــ عكس أول المحاضــرة ـــ مطمئنـــات، لا يساورهن قلق أو شعور بالاستعجال. وانضمتْ إليهن ممرضـــات وموظفات وشغالات. أبدأ بـــالكلام العـــادي، فتـــشدني أســـئلتهن الجامحة إلى مناطق أخرى. يشتط الكلام بعيداً، لكنني ما ألبث أن أربط هذا بذاك. وكعادتي في إنهاء المواقف عند الذروة، واختباراً نهائياً للتواطؤ الذي افترضته، نظرت في الساعة وقمـــت بـــشكل مفاجئ، متعللاً بأنني أثقلتُ عليهن بهذا الكلام الفارغ.

كنت أشعر بالانتـــصار وهـــن يـــستوقفنني بعيـــونهن بعـــد المحاضرة، أمام القاعة، ثم في حديقة المستشفى، ويـــسألن أســـئلة خاصة. وإمعاناً في التأكد من الانتصار كنتُ أستفسر عن تفاصيل خاصة، مدعياً أهميتها في دقة التشخيص، ومن ثم الحل، فكـــنَّ ـــ لدهشتي ـــ يبُحْنَ بـــأكثر مما أتوقع، حتـــى أننـــي بـــدوت بـــالغ الصلف وأنا أسحب نفسي من بينهن ناظراً ـــ مرة أخري ـــ فـــي الساعة، فيسدلن الطرح، ويعدن تدريجياً إلي التحفظ كلما اقتربـــت من البوابة، وهن يرجونني أن أحدد محاضرة ثانيـــة لاســـتكمال النقاش.

في المحاضرة التالية كن متألقات. يرتدين أجمل مـــا لـــديهن. كانت (نهى) في الوسط أمامي مباشرة، تعاتبني بعينيها الناعـــستين وصدرها المنتصب في شموخ، منذ أوعزت إليها فـــي محاضـــرة

سابقة، وظللت أضغط على مواطن الضعف التي أعرفهـا حتـى لانتْ. وحين أحسستُ أن صدرها هو مصدر الإعجـاب، تعللـتُ بأن ورائي موعداً هاماً، لكنها ظلت بصدرها المنتصب تطـاردني لثلاث ليالٍ في حلم واحد.

كانت نظراتهن حالمة، حتـى أن الـرءوس انكـشفت وسـط المحاضرة فلم تسع الأيدي لسترها. انقشع الخجل، ولم يبد تحفـظ من أي نوع. وكنت أتكلم بآلية ما أزال، يعاودني اعتلال المـزاج، وفقدان الحماس لأي شيء: تنظيم الأسـرة، التثقيـف الـصحي، الجرائد والتليفزيون والمستشفى والمقهى وبيانات الحكومـة.. إلا سجائري، ألتهمها وأطرد الدخان من فمي بملل كـأنني أبـصق. ألمِّح إليهن ــ وأقصد نهى ــ بأن لا يجئنني في الحلم، صـراحة أو متخفيات في صورة سعاد حسني، لأنني أتعـذب حقيقـة مـن انتحارهن المتكرر في الحلم لكثرة إعراضي عنهن، حتى أنني لم أعرف على وجه الدقة إن كانت عينا نهي العاتبتان حزينتين لمـا حدث مني في المرة السابقة، أم لما حدث في الحلم، أم لأن امـرأة ــ على غير العادة ــ ألقت الصباح عليّ في الطريق العـام ولـم أرد، فأسرعتْ الخطي كأنها تهرب وهي تنظر بخجل شديد فتهيَّـأَ لي أنها هي.

ارتبكتُ حين وقع نظري فجأة على سعاد حسني، كانت متألقة

ومنطلقة، تضع يدها على رأسها والأخرى في خصرها وتنظـر بدلال من تحت إلى تحت. كان من الصعب ــ سوى من الصدر فقط ــ أن أفرق بينهما حتى في الحلم. أخرجتُ سيجارة، وانتهزتُ فرصة إشعالها لأتأكد من صدرها، فوقعت عيناي على الخبر الصادم أسفل الصورة. كان مفجعاً كما في الحلم وغير متسق تماماً مع انطلاقة الصورة وتوهجها. وكنت أريد أن أعرف وقع الخبر عليهن، وخاصة نهى، لكنني آثرتُ ألا أعرف، وانتهيت دون أن أربط هذا بذاك، وخرجت إلى حديقة المستشفى التي بدت ضيقة على غير العادة. عادت الأيدي تستر الرءوس بالطرح والوجوه ترتدي نفس الأقنعة التي دخلن بها. عند البوابة، أمامهم نهى التي وقفت بارزة الصدر، كن يتوسلن لانتزاع موعدٍ لمحاضرة أخرى، لكنني لأسباب أخرى غير القسوة هذه المرة اعتذرت.

اقتربت غجريات ثلاث برباباتهن من باب المستشفى، كدن يمنعننا من الخروج وهن يغنين بالربابة والإيقاع لحن "البنت بيضا"، فما الذي دفعني أنا الذي لم يعد يجذب انتباهي شيء للتلكؤ، والنظر إليهن وهن يصفقن ويوسعن الدائرة دون أن تنسدل الطرح، أو تحل لتتحزم بها الخصور كما افترضت لتوي. ودون أن أنتبه لمكر الغجريات اللاتي أسرعن الإيقاع قليلاً، بدا أن

الأربع اللاتي يضعن قطناً لا يملكن السيطرة على أجسادهن حيال اللحن، ولم تعد اللتان أزالتا ثدييهما جراحياً مكتئبتـــين، وبـــدتا ـــ ظاهرياً وطبيا ــ كاملتي الأنوثة، تهتزان مع اللحن.

أحطنني فلم أستطع الخروج. وفشل زينهم المعاون الذي كـــان يبتسم في كسر الدائرة، فطوح العصا في الهواء من خارج الدائرة فتلقفتاها وأسندتاها بين صدريهما وصارتا تتمـــايلان بخـــصريهما وجذعيهما، مرة على ساق والثانية على الأخرى، في تنـــاغم دون أن تسقط العصا، وهن يبتسمن حتـــى شـــعرت أنهـــن يجـــادلنني بطريقة أخرى بدائية، دون أن أستطيع الخروج.

حتى هذه اللحظة، لم أكن قد قـــررت اللجـــوء إلـــي العـــصا لتفريقهن، إلا عندما تحولت الغجريات باللحن إلى "مالي بيه الـــواد الخاين" فكنت أهش بطرف العصا على الأرض أمـــام أرجلهـــن، متقدماً إلى الأمام والخلف كي أفتح ثغرة، ولكم بـــدا الأمـــر بـــالغ الصعوبة، متطلباً المزيد من التحرر والرشاقة للمحافظة على ذات المسافة فلا يضيقنها مع التلويح بالعـــصا دون إصـــابتهن. كنـــت أتقافز برشاقة واضعاً يدي في خصري أو فـــوق رأســـي وهـــن يضيقن الدائرة كأنهن سيهجمن، وحين يشعرن بفزعـــي، يوســـعن الدائرة مرة أخرى ويصفقن بإيقاعهن المتعـــالي. كأنمـــا أرقـــص رقصة التحطيب لا أبحث عن ثغرة للخروج، كنت أتعجـــب مـــن

نضارة وشقاوة أثدائهن التي بـــرزت خلـــف البلـــوزات الـــضيقة والهدوم المنزلية، حتى أنني لم أكن غاضباً وصدر نهـــى يهتـــز كأرنبين طليقين، وانتصارها على عطيات التي تركتهما متهـــدلين ومرهقين. لكنني كنت غاضباً وأنا ما زلت أتقافز لا إراديـــاً فـــي الهواء، لأنني لم أعرف منذ متى انتهى اللحن، ولا متى ســـقطت الجريدة من يدي علي نفس الصورة المنطلقة وهن ينظرن جميعا، فأسرع بالخروج من دوائرهن المغلقة الصامتة، متفادياً النظر في عيونهن المفتوحة، وسواعدهن المحيطة بصدورهن كأنها تحـــيط بأشياء ثمينة، وحركاتهن التلقائية التي تتأكد مـــن قفـــل أطـــواق ملابسهن.

داليا.. عمليات

عشرة أشهر وأنا أسير لنداء داخلي، يوحي إلي فأتنقل بحالاتي بين المستشفيات الخاصة بالمدينة. نداء مبهم وغير منطقي، لا أجرؤ على التصريح به، بينما أبرر اختياري في كل مرة باتساع المكان ونظافته، أو انفصال العمليات عن غرف الإقامة والزوار، أو الخدمة والتمريض ورخص الأسعار. يبدأ النداء بعيداً وملتبساً كفجر كاذب، ثم لا يلبث أن يشرق كالحقيقة ويتوهج، فأحدد المستشفى وأذهب مفعماً بالأمل، أحدق في بنات العمليات فلا أجدك، فأتم مهمتي وأخرج مستسلماً لحالة من اليأس تمتد أياماً، قبل أن يومض النداء الغامض داخلي ثم يبزغ، فأوعز لأهل الحالة التالية بالذهاب إلى مستشفى آخر.

ــ اسبقني ع الصفا..

هاتفني زميل مستنجداً كيف يتصرف وامرأته تنزف بشدة من مجيء المشيمة قبل الجنين. بآلية قلت: الصفا. ولبست هدومي وتوجهت إلى هناك، وعلى مدى عشر دقائق ــ قيمة الطريق ــ لم يشغلني النزيف بقدر ما كان الحدس يومض بداخلي ثم يشرق حتى ملأني كنور الضحى، حدس لا يداخله شك بأنني سأراك

الآن حتماً حالما أدخل من باب المستشفى ــ مثل آخــر مــرة ــ واقفة تنبهين على الشغالات بأن يُدخِلوا مريضتي حجرة (٧) دون أن تنتبهي إلي وصولي إلا وأنا أجذب القميص من أمامك وأتجــه إلى المكتب قائلا: العمليات على طول.. وبلغي التخدير.. الجنــين تعبان. هل انبنى حدسي علي آخر عملية أجريتها هنا منذ عــشرة شهور وكانت زوجة لزميل أيضا؟ ربما، لكنني لم أجــدك، فخبــا الإشراق ولم يحدث من ثم ما ارتسم بداخلي مــن فتحــك لبــاب المكتب وأنا أغير ملابسي، ودهــشتك لــسرعتي فــي اللــبس، وإحجامك عن استبدال القميص الخطأ. أو أجدك حين أخرج مــن غرفة المكتب واقفة في غرفة العمليات معقمة ترتــدين الجــاون المفتوح من الخلف والقفاز أمام منضدة الآلات. لم أجــدك، ولــم تكن مجرد لحظة تصيبني فيها خيبة أمل أشعر بها، إنمــا كانــت ذروة اليأس، ولا أدرى كيف امتدت يدي لتتناول القميص من يــد نهى الممدودة، فسقط قميصك الذي حرصت على ارتدائه لعــشرة شهور من تحت إبطي.

"إيه يا عم الحلاوة دى؟". شهقت نهى وصابرين وإكرام وأنــا أُدخل ذراعي في كمي الجاون، فانطوت ابتسامتك للمفاجأة علــى عتاب من سلوكهن الفج، والذي بدا كأنه خارج نطاق الــسيطرة، وبدا لي لأول مرة أن الآلية التي يسير بها العمل داخــل غرفــة

العمليات لم تكن وليدة انسجام بينكن، بقــدر مــا كانــت تنفيــذاً لأوامرك الخفية وهن يستشرنك همساً، فتحدقين بعينيك الواسعتين، تفكرين لوهلة ثم تهزين رأسك رفضاً أو موافقة، فتسير الأمــور لمن لا يعرف بانسجام، بداية من تجهيز أدوية التخدير والمنظــار والأنابيب الحنجرية بمقاساتها المختلفة حتى التأكد من الأكــسيجين في الاسطوانة، ولن يدرك الغريب ــ مهمــا بلــغ انتباهــه ــ أن بصمتك العابرة نحو الحوض كانت تعني وضع الفُوط والفرش بعد العملية في الماء وإضافة الكلور، أو أن إيماءتــك نحــو الغــسالة تعني نقل الفرش إليها وتشغيلها. حتى نشر الفرش ولمه وتطبيقــه ووضعه في جهاز التعقيم بإيماءة تختلــف عــن تلــك الأخيــرة المتفحصة لكل أرجاء الغرفة قبل أن تــصير جــاهزة لاســتقبال عملية جديدة. لم تفوت البنات فرصة إلا ويحدقن فيّ ويتهامــسن، فاستشعرت أنهن خارج السيطرة.

بإخراجي للجنين، وإغلاقي للطبقة الأولى من الرحم، انتهــت عشر دقائق من التوتر، وعدت ــ خلال باقي العملية ــ أرقبــك وأنت منشغلة بمناولتي الآلات التي سوف أطلبها، تنتقلــين بــين منضدة الآلات وطبق الماء الساخن، تنشيف المجال، تقصين فتلــة وتلضمين إبرة جديدة، وتعتذرين عن كثرة اصطدامك بي، فيما بدا أنك تعملين وحدك بينما نهى وصابرين وإكرام ــ عكس كل مرة

ــ منصرفات إلى العناية بالجنين، أو الهمس والنظر مــن تحــت لتحت. كنتِ حادة قليلاً، تترقرق عيناك وأنت تنظرين إليهن، فــلا يستجبن بنفس السرعة. فككت القناع عن فمي منتظراً أن أكتــب لك خطوات علاج المريضة، فأتأمل ــ ككل مرة ــ المناطق التي ترشح بالعرق أعلى الثديين عبر قمــيص العمليــات بمجــرد أن تخلعي الطاقية الورق عن رأسك وتتدلى ذؤابتاها علــى رقبتــك وأنت تمسكين ملف المريضة وتضعينه على صــدرك وتــشيرين إليّ وإصبعك على الكلمة التي تريدينها إن كنت أقــصد جلوكــوز كل ست ساعات أم ماذا، أقول: أين؟ فتضغطين بإصــبعك أكثــر على الملف والذي يضغط أكثر على جانب ثديك، فــأقول دون أن أرفع عيني عن إصبعك والملف: جلوكوز ٥% كل ست ساعات.

ماذا بوسع ممرضة احتد عليها طبيب، سوى الغيــاب بــضعة أيام أو العمل ــ على أكثر تقدير ــ في أحد المستشفيات الأخرى؟ وماذا كان عليّ سوى أن أنتظر مجيئك ثم أجوب بالترتيــب كــل هذه المستشفيات ممتنعاً عن القهوة التي تعدها الــشغالات بــذات المقادير وذات الوش بأمر من نهى وصــابرين وإكــرام، لأنهــن يتعمدن عدم الإدلاء بأي حديث عنك أمامي مهما بــدا عــابراً أو تلقائياً، كأنك لم تكوني رئيسة هذا المكان يوماً. صمت مريــب لا يعني سوى أنني جننت، وأنك لم تكوني سوى برأســي، أو أنهــن

تواطأن معك على تعذيبي، نفس التواطؤ الذي أثر فيّ على مـــدى ثلاث سنوات وجعلني أخضع لتأثيرك الجسدي والروحي، النـــاتج عن كونك تبدين طوال الوقت على هذه الدرجـــة المذهلـــة مـــن التوافق والانسجام، فلا أجري أي عملية إلا هنا. اعتدت حتى في الحالات التي لا تتطلب السرعة أن أجـــيء مبكـــراً، ربمـــا قبـــل الحالة، أدخل المكتب فتأمرين الشغالة بإعداد القهوة فـــي كـــوب، منبهة في كل مرة على المقادير والحرص على الوش، لأســتمتع كعادتي من بعيد بالنظر إلى منبت شعرك النـــاعم الملمـــوم عنـــد رقبتك النحيفة وأنت تقدمين القهوة وتنحنين قليلاً لتضعينها أمامي فيبين منبت الثديين، وقبل أن يظهرا كـــاملين تعتـــدلين بـــسرعة وتقولين:

ــ نحضّر دلوقت واللا اما تيجي الحالة؟

أقول: شوية. على أمل أن تجلسي قلـــيلاً. لكنـــك تنـــصرفين. يلاحقك السؤال: خيوط إيه اللي عندك؟ فتلتفتـــين عائـــدة تعـــدين ببراءة على أصابعك الرفيعة أنواع الخيوط وأرقامها، بينما أحملق في صدرك حتى تنتهي لأتخير: كروميك٢ بدون إبرة، وفيكريل١ علي إبرة قاطعة. أنادي ولا أشبع فتلتفتين: يا داليا.. اللـــبس. يـــا داليا.. التعقيم. يا داليا.. المريضة تخش الحمام أولا. وحين أدخـــل أجدك قد أعددت كل شيء. فقط أمد ذراعي في كمـــي الجـــاون،

وتشيرين إلى الشغالة فتربطها من الخلف، ألتفت فتكوني قد جهزت القفازات رقم ٨، وتشيرين إلى أصابعي فأفردها كي تلبسينها لي بنفسك.

شعرت للمرة الأولى بضيقك من بطء استجابة البنات لإيماءاتك، تلك التي تحولت إلى نظرات حادة وصامتة ومترقرقة كأنها ستدمع كي لا أشعر أثناء العملية بعدم الانسجام الذي وصلني بالفعل، ودفعك بعد أن انتهيت من العملية إلي الانصراف بالآلات لغسلها بنفسك في صمت، تاركة لنهى ومن خلفها صابرين مهمة إحضار ملف المريضة لأكتب العلاج، بينما أعزو ابتساماتهن وشهقاتهن إلى هذا الوقت من العام الذي يتخففن فيه من ملابس الشتاء فيبدون فيه جميلات أكثر من المعتاد، ويتقن إلى مخاطبة الرجال، وهن يتحركن بخفة في ملابسهن الخضراء.

لم توقفني شفة نهى السفلى الغليظة مع ذلك الجزء المكشوف من الرقبة والصدر الكبير المرتفع لأنني أعرف أن الصورة ستختل حالما تدخل عناصر أخرى كالبطن والجذع والردفين، ولا وجه صابرين الأبيض كالشمع بعينيها الخضراوين وسنتيها الأماميتين البارزتين على جسد نحيف بلا صدر أو أرداف. لم أكتب كلمة واحدة، معتبراً أن حقاً من حقوقي قد انتقص، وبحثت عنك، لأن الرقبة ليست ذلك الجزء الأسطواني الذي يحمل

الرأس، إنما الرقبة مع الكتفين مع عظمتي الترقوة، مع حجم الرأس ونوع الشعر وتسريحته في هذه اللحظة وعلاقة كل ذلك بالوجه، تلك هي الرقبة التي تختلف قيمتها صعوداً وهبوطاً مع هذه المتغيرات، لتصل إلى ذروتها معك في قميص العمليات الأخضر، ذي الطوق المفتوح على شكل ٧، والذي يسمح لها أن تبدو طويلة بالفعل وملساء ونظيفة بلا اختلاف في اللون، مصحوبة بذلك الإحساس الإضافي بالطول الناتج عن رفعك لشعرك الناعم من منبته أعلى الرقبة وضمه في كحكة، مع وجهك المستطيل ونظراتك الحادة والمنتبهة دائماً، وانسدال كتفيك قليلاً تحت القميص نصف الكم والذي يضفي على ذراعيك المكشوفين طولاً أيضاً ربما أكثر من اللازم. لا أعرف من أين أتى كل هذا الغضب لأقذف بالملف وأزعق: "فين داليا؟" فتنتصبين أمامي على غير العادة تلمين طوق سترتك بيد وتمسكين الملف بيد: "أفندم". وتتسع عليك البيجامة، وتبدين في لحظة أرفع من ذي قبل وأصغر، بينما لاح لي أنني أعنِّفُ طفلةً بأنه لا يصح أن تترك ملف المريضة لأحد غيرها، وأنت تومئين بالموافقة كتائهة وتلمين الطوق بحرص أغاظني. جذبتك من ثيابك لتنتبهي فانفكت ثنية الطوق من يدك، وانبثقت دموعك دون أن ترتفع يدك مرة أخرى لتخبيء صدرك الذي أطل أكثر من المعتاد من فتحة القميص، أو

تخبيء اسمي الذي بان مكتوباً بالأحمر على جيبك الأيسر، وهو ما زاد انفعالي، لأنك أول من يعرف أنني لا أحب أن يرتدي قميصي أحد. حتى انتبهت ــ بعد أن أمرتك بالانصراف وأغلقت المكتب وغيرت هدومي ــ إلى أنني كنت أيضاً ألبس قميصك المكتوب على صدره: "داليا.. عمليات"، عندها ــ فقط ــ أدركت لماذا فتحت علي الباب وأنا ألبس قبل العملية، ولماذا كان البنات يبتسمن ويشهقن بسوقية.

بإخراجي للجنين، وإغلاقي للطبقة الأولى من الرحم، توقف النزيف وانتهت عشر دقائق من التوتر، واكتشفت ــ خلال باقي العملية ــ أنني كنت أنظر إلى نهى على أنها أنت، وناديتها اليوم أكثر من مرة ــ خطأ ــ باسمك، مستشعراً مذاق قهوتك حالما ننتهي. لكنني انتبهت مستغرباً من سيطرة اسمك وتردده على غير العادة وحضورك الجارف، ولا أكذب لو قلت إن رائحتك تملأ الغرفة، ورائحة القهوة من اتجاه المكتب تملأ خياشيمي، وإنني أشم عرقك. استغربت هذه المرة لبقاء لحظة الإشراق بداخلي حتى خلعت الجاون، وقلت لزوجة زميلي وهي بين الغفوة واليقظة: حمداً لله علي السلامة، فخمشت قميصي. كانت تخمش القميص بيدها من ظهري كأي مريضة تفيق، غير أنها بدت خمشات ملحة، وبينما أتأهب للخروج ازداد الخمش. التفتُّ، كانت

الأصابع التي تتشبث بأطراف القميص تجذبني من طوقي بإلحاح، وتتشبث بالقماش والجلد، وأنا أحاول أن أفهم مـــا تريـــد، وحـــين نشبت الأظافر الصغيرة بشكل مؤلم لاحظه طبيب التخدير وسعى لتخليصها من قميصي، لم أكن قد انتبهت بعد إلـــى تلـــك الرقبـــة والصدر وملامح الوجه المستطيل، وذات حبات العرق النظيـــف في منبت الشعر المنسدل، وتلك البصة العميقة والحزينة في عيون محتقنة بالدموع والتخدير.

تركتْ القبضة الصغيرة جداً لزوجة زميلي ــ والتـــي تـــشبه قبضة طفل ــ أثراً بقلبي الذي بدا كأنما ينتزعه أحدٌ من مكانـــه، ونهى تسلمني قميصك الذي سقط من تحت إبطي. ذلك الأثر الذي دفعني إلي العزوف عن قهوة قالت نهى إنني الذي طلبتهـــا لأول مرة، فأتت بها مبتسمة وهي تداري صدرها الكبير من الظهـــور فلا تفلح.

حمل الغزلان

هو الموعد، لا قبل ولا بعد. تنفرط القطرة الأولى فينطفئ كمصباح حلمي الخامس والثمانين. أغمض عيني وأدفن وجهي في الوسادة. هو الموعد، لا قبل ولا بعد. سلسلة مفاتيحه تخرج من جيبه. يبحث عن مفتاح الشقة. كأنه عرف حين مال على نتيجة الحائط ونزع ورقة اليوم مبكراً. لم يعد بإمكاني مداراة لمعان عيني، كأنما سأبدأ تواً في البكاء أو انتهيت للتو منه. كأنه عرف. وضعت العشاء ولم أستطع أن أتكلم. حركتي بطيئة وفمي يتحرك شبه خال. يصعد كوب الماء إلي فمي وينزل ولا أبلع. أقوم لأكثر من مرة وهو صامت، أتذكر الملح ثم الملعقة ثم الشوربة. ألم الأكل أخيراً وأدخل المطبخ.

قطرة قانية، ليست لها رائحة الزفارة المعتادة، متأنية ومؤلمة. استبعدت أن تكون طمثاً، كي لا أشق المقابر، وأتيح للفزع أن يتملكني. هكذا يكون الاتفاق: ينتظرني هناك، خارج المقابر بمسافة، أخترقها فجراً، بعيداً عن أنوار الأعمدة، فترتمي في ضوء النجوم ظلال الشواهد وأشجار النبق والنخيل علي أرض سوداء. يزداد الفزع كلما توغلت. أسعى وحدي وبمحض إرادتي لمزيد من الخوف. آخذ الطريق اليمنى فلا أمر على شيء مررت

عليه من قبل. لا ينطق لساني بشيء. أعلم أنني غيـــر متوجـــسة، وأنها مجرد ظلال وشواهد وخرفشة أفرع شجر، وأوراق جافـــة أدهسها فتتبعث هذه الأصوات الخرافية، لكنني لم أستطع أن أهمل خطوات كأنها تتبعني ويداً توشك أن تلمسني. لم أصرخ، فالمقابر التي ظننتها مفتوحة أجدها حين أقترب مغلقة. اعتبرتها تهيـؤات، مطمئنة لوجوده بالخارج، وأن ما يحدث على أي نحو قد يكـــون تحت سيطرته، فالأمر مرتب ربما لإثارة الفزع على نحـــو مـــا، والخطوات التي تتبعني ــ حين حدقت ــ لم أجدها. مرق من بين ساقي فجأة قطان: أحدهما أسود والآخر أبـــيض، صـــعدا ســـطح مقبرة. تسارعت دقات قلبي، وارتطمت برقبتي نفخـــة ســـاخنة، التفت، تقافز قلبي، نفخة أخرى حارة، التفت. من أين يـــأتي كـــل هذا الهواء الساخن؟ بدأت الأمور تتجاوز ما أتوقعه. استراحت يد علي ظهري. "إيه اللي جابك هنا؟". هـــزت صـــرختي الطويلـــة الفزعة خواء المقابر وأنا أهوي، فيما كانت اليد الكبيـــرة تقـــبض هدومي بجزء من لحمي، تمنعني من الـــسقوط وتـــدفعني نحـــو المقبرة التي بدت كأنها مفتوحة مرة أخرى. رد الباب بقسوة فيمـــا لم يتصاعد صراخي الحاد متواصلاً وهستيرياً إلا بعد أن ســـمعت صوت فأس تهيل التراب بحق. كيف فتح البـــاب فجـــأة، وكيـــف خرجت يركض أمامي أرنبان أبيضان. كان الصراخ قـــد أفزعـــه

وجعله يقابلني عند مدخل المقابر، ليربت كتفي. مجهدة كأنما أفيق من مخدر عام، أو إغماءة طويلة، أسأله إن كانــت تكفــي هــذه الجرعة من الفزع والصراخ، وأسبوع من مرض قاطعت فيه كل شيء عدا البكاء المكتوم، فيلثم ظهر يدي.

كأنما تفتش نظراتهم عن شيء ما في بطني وصدري، تقــتحم التفاصيل، تراقب حتى مــشيتي واهتــزازات أعــضائي، كأنمــا يعرونني، أشعر بالخجل وهم يتظاهرون بالشفقة. ينقطع كلامهــم فجأة حين أدخل مكتبي. يبدو الارتباك، يعقبون في إجمال كــأنهم يتحدثون عن أخرى "هي في نعمة.. يكفيها الهدوء". لا تجرحنــي الكلمات قدر ما يجرحني انقطاعها فجــأة. يــشيرون بأصــابعهم لزميلي وأنا خلفه فلا يتوقف إلا متأخرا:

ـ الحلو ما يكملــش.. فــين العيــب فــي الجــسم ده.. حــد يفهـــ..همني.

لم أعد أعرف. تقاسيم جسدي نموذجية، يقــول فــي ســاعات الصفاء ذلك، وحين يحتمي طــوال الليــل بظهــري، ويحيطنــي بذراعيه ويريح كفتيه على صدري، وحــين لا يأتيــه النــوم إلا ووجهه مدفون في صدري. لم أعد أعرف، وهانم فــودة الدايــة العجوز ذات التقاطيع الحادة تمسك بفجور وغنج أعضائي وهــي تلف الغزل حول وسطي وتستخرج البرد من رحمــي بمجمرتهــا

الفخار والعجين وتحثني كأنها تشجعني وتلعب حاجبيها وتضحك:

ــ ناقصك إيه.. القطي بقى.. آه يانا لو كنت راجل آه.

لم أعد أعرف، سوى أن الأمور لن تسير طويلاً علـــي هــذا النحو الهادئ، إذ يرجع الأمر إليهم ــ أبعد النـــاس إلـــى أقـــرب الأقارب ــ بنظراتهم المباغتة تلك وأسئلتهم الصعبة والمتهمة:

ــ العيب عند مين؟

للأرانب البيضاء عشق خاص، إذ تركض حولي وتتقافز فـــي أحلامي بعيونها الحمراء اللامعـــة ووبرهـــا الأبـــيض الناصـــع. أنتظرها فتجيء، فينتابني صحو ونشاط وألق طوال أيامي التالية. لم تأت الأرانب الليلة وأتت نقطة أخري من دم قان وهو نائم فـــي وضعه المعتاد، أعلم ــ من توتر يديه على صدري ودفء جسده الملاصق لظهري وأنفاسه ــ أنه ربما لا يكون نائماً. كان اليـــوم في عمله وتأخر قليلاً، ربما شرب القهوة عند زميل، أو مرّ علـــى نجلاء، لم يقل، كأنه حزين أو متعب. أغفو وأصحو وهو كما هو، بنفس اليدين المتوترتين حول صدري، في منطقته المفضلة بـــين الصحو والنوم، لا يتكلم. نقطة أخري. أتحسس بطني. هل أقـــول له إن أمل ابنة خالي لم تكن تعلم أنها حامل حتى شعرت بمغـــص شديد. جاء الطبيب وقال: ولادة في السابع، والتقط بسرعة الولـــد الذي كان يتحرك في الرحم بينما الدم ينزل كل شهر، ثم ضـــحك

وهو يغسل يديه وقال: حمل غزلاني. أغفو وأصحو ونجلاء تتشاجر معي، ويعلو صراخها وهي تأمره بعنف دون أن تنظر نحوي "سيبك منها.. العمر بيعدي.. شوف واحدة غيرها.. ربنا يعوض عليك.. إيه رأيك ف.." مفزوعة أصحو فأجد نفس يديه الحانيتين تحيطان صدري، يهدئني من منطقته المفضلة "إيه يا حبيبتي.. فيه حاجة؟" فيما هجرتني الأرانب البيضاء، تكررت مشاجرات نجلاء، وسقطت في أحلامي أشجار لم تعد تثمر.

كأنما الأمر برمته حلم طويل، مختلط ومتداخل، وكأنه كان يرتب لكل هذه الطقوس. يخامرني شعور بأنه الذي أوصى واتفق مع حفار القبور ولم يقل حتى يكون الفزع حقيقياً. كان يسمعني بشغف كأنه يعرف لأول مرة، مستبعداً الصدفة التي تجمع في نفس الليلة حارس قبور بامرأة تبحث عن الفزع وقبر مفتوح. هي الأمور تتكشف دون أن يفصح وهو يحيطني بين النوم واليقظة، فأعرف أنه هو الذي أحضر الثعبان وتركه في المطبخ، وحين فتحت الفرن وجدته مكوما يبخ سمه في الفراخ المحمرة. صرخت صراخاً هستيرياً، إذ كنت وحدي في البيت. التمَّ الجيران وموتوا الثعبان، وجاء من عمله مفزوعاً. رمي الطعام وحمد الله أنني رأيته وإلا كنا متنا. فزعه الحقيقي، وتوجسه من كل شيء، ومساعدته لي في وضع الشيح في أماكن مختلفة فلا تنتقم أنثى

الثعبان ممن قتل وليفها، جعل الرعب يتملكني لأيــام، وصـــرفني عن التفكير في ضلوعه في الأمر مع هانم فودة التي اشترطت أن يكون الفزع حقيقياً. لم أعد أعرف إن كان هذا من ترتيبـــه أم أن الأمور لا تعدو أن تكون صدفاً والربط بينها تعسف كبير.

دم قانٍ، قليل، متقطع ومؤلم، لكنـــه فـــي موعـــده الـــشهري يزعجني ويهدم افتراضي. هل أتصل بالطبيب؟ سيـــسألني عـــن تاريخ الدورة السابقة ثم يطرق كعادته "دورة.. في الغالب دورة". أصمت، يواسي، أعرف أنه يتخلى قليلا عن يقينه العلمي ليخفـــف عني. لم يعد لديه ما يقوله. يخفت الصوت. يخبو الأمـــل. أضـــع السماعة في صمت. أخشى الذهاب لطبيب آخر فأخضع لفحـــوص مخزية وعلاج شرس ومناقشة لتوقيتات فجة للجماع وتعليمـــات بالنوم في وضع محدد ولمدد معينة.

دم دافئ وقان، أغنيات الصبايا تهاجمني، وهن يغنين بخـــوف وغنج عن غياب الدورة في عودتهن المتعبـــة مـــن العمـــل فـــي الغيطان، وينتظرنها فلا تجئ:

ـــ "يا أول شهري ولا جاتنيش ضهري.. يا خوفي من أهلـــي يتبروا مني".

نفس الصبايا المتعبات من جمع القطن اللاتي غنين لي في ليلة الحنة: "علّي باب الأوضة يا واد يا بنّا.. علّي باب الأوضة لأحل

شعري واعملوهلك موضة يا واد يا بنّا"

تغرق دموعي ذراع البنا الذي أعلى ــ قدر المستطاع ــ باب الأوضة وباب القاعة وباب المندرة، لكنها لم تمتلئ بأطفال من صلبه، يركضون ويمرحون فأخرج لهم صدري ككلبة لأرضعهم وأرعاهم. دم قان وغزير وأنا أخبو. يفقد ثدييَّ توترهما وثقلهما، يعودان إلي وضعهما السابق كبالونتين انفقأتا. يفك ذراعيه من حولي كأنما إلى الأبد. أدخل الحمّام، يأس مطبق وحر شديد. أتحرر من ملابسي.. من الغزل الملفوف حول وسطي. أتحرر من أحلامي وأستسلم للخواء.

القسم الثاني

بوابة الليل

كيف لم أشعر تلك الليلة، وأنا راقد إلى جوارها، أن ثمة أشياء غريبة تحدث، وأنا أراها تنسل من الفراش لأكثر من مــرة، ثــم تضبط الحِرام حولي جيداً على فرن القاعة الدافئة، بينما أتــأرجح بين النعاس واليقظة، فلا أتذكر بالتحديد متى غادرت الفراش إلــى بيت الراحة، ومتى عادت إليه، وهي تستند إلى الحــائط وتتــألم. أحدق في سقف القاعة القريب، بعروقه الخشب وبوصه المــشرب بهباب الفرن، أسدد بصري بتوجس نحو ظــلال ســوداء، تكبــر وتصغر وتتحرك في ضوء لمبة نمــرة خمــسة موشــكة علــى الانطفاء، أعلم أنها هدوم معلقة على الحائط. كتلة الهدوم القديمــة التي كورتها وسدت بها ناروزة السقف درءاً للبــرد والعفاريــت، أراهم يسحبونها بالفعل محاولين النفاذ. يخذلني لساني، فــلا يتلــو آية الكرسي أو المعوذتين، ولا يطاوعني صوتي فيغــادر حلقــي للنداء عليها، حتى أسمعها تغلق باب بيت الراحة وتتــساند علــى الحائط و تتحسس مزلاج باب القاعة، فيهتز ضوء اللمبــة نمــرة خمسة أو ينطفئ حين تفتح:

ــ يا رب.

كانت قد اعتادت أن تطوقني بذراعيها وتحكي، وهـي تحكـم الحرام حولي، فيبث جسمها الحاني ذلك الدفء الذي نتلافى بـه سيرة الحرامية والعفاريت، فيقصر ليل الشتاء الطويل. بين النـوم واليقظة، قبل أن أفقد قدرتي على المتابعة، تؤكد عليّ إن كنت في حاجة للذهاب إلى بيت الراحة قبل أن أنام. تخيرني مرة أخـرى، لأنها تعلم أنني لن يكون باستطاعتي مجرد التفكير في القيام مـن تحت هذا الحِرام إلا في الصباح، فالعفاريت تسكن الدار الكبيـرة بالليل، وترمح خارج باب القاعة، لا يـصرفها إلا أذان إبـراهيم عبد المطلب من فوق جامع سيدي مبارك.

كيف طال الليل هذه المرة، ولم يستطع وابور الجـاز بوشـه العالي أن يبعث الطمأنينة والدفء؟. هـدأ وشـه ولـم يـستجب لإعطائه المستمر والمستميت نفساً من الكبّاس سوى بالمزيد مـن الخفوت، ثم انطفأ. رجته بالقرب من أذنها. نفد خزّانه من الجـاز الذي ملأته قبل العشاء، فهاجمتنـا خرفـشة بالخـارج، ودهـس لصوص وقطط، وعفاريت لقتلى وغرقى ومحـروقين، يعبثـون بالكراكيب والمخلفات على السطح المهجور، ولم يعـد بالإمكـان مجرد التفكير في القيام من تحت الحِرام، لإحضار القمع وصفيحة الجاز وتعمير الوابور. يتبدد الدفء وتسرى البرودة عبر الحِـرام إلى جسدينا، فنتوسل لنور اللمبة ألا ينطفئ، قبل أن يعتلى إبراهيم

عبد المطلب ظهر جامع سيدي مبارك.

ثمة أشياء غريبة تحدث، لا أدرى كنهها بالتحديد، وباقي السكان غير موجودين. يشعرنا وجودهم ولو كانوا نائمين بالأمان، حديثهم خلف أبواب حجراتهم، أنفاسهم، حتى كحة الخارج منهم، ولو كانت مفتعلة، يشجع بها نفسه أولاً، وينبه الجن واللصوص كأنه يستأذن، فيخلون طريقه لبيت الراحة. تطوقني بذراعيها وهي ترتعد كأن ألماً متقطعاً يعتريها. أسألها عما يخيف اللصوص، فتقول: الأطفال الصغيرة، أولئك الذين يستيقظون في أي وقت من الليل ويبكون. يتجنب اللصوص تسلق دار بها رضيع. من أي اتجاه تجيء الخرفشة؟ تهمس لي أن أكلمها بصوتٍ عالٍ، يسمعه من بالخارج. تجعلني أصرخ وأزعق لها بغضب. تتجادل معي وتطوقني أكثر بذراعيها فأتضاءل في حضنها، وأتساءل متى يخرج من بطنها المنتفخ أخي، ويبكى بكاءً غشيماً وبريئاً غير خائف، يحمينا من دهس وخرفشات، نعلم أنها ربما كانت لكلب أو قطة أو أرنب، وما حيوانات الليل غير صور يتخفى فيها الجن والأرواح والملائكة.

كنت أسمعها تغلق باب الراحة وتقول: يا رب. كأنها تنادى أحداً. لماذا طال الليل هذه المرة؟ ولماذا تأخر إبراهيم عبد المطلب في الصعود إلى ظهر الجامع؟ فلم يتناه إلينا لغط أولاد

الحبشي ونسائهم وهن يـستيقظن ويحلـبن، ولا جلبـة خـروج مواشيهم إلى الغيطان، ولم يحدث ككل فجـر، فتعـزق زريبـة الصيادين ويرتج الفرن الذي ننام عليه لخبطة فأسهم العفية، فنعلم أن سباخاً يخرج، أو تجرد نفس الفأس بصوت أنعـم، فـنعلم أن ردماً نظيفاً يُفرش في الزريبة. ليلة طويلة، وناس يغطـون فـي النوم، وشتاء للبراسيم والأقماح، لا ري ولا حصاد.

ثمة أشياء غريبة تحدث هذه الليلة، وكلما سألتها تقول: "ادعـى لى". أقول لها: ماذا أقول في الدعاء. فتقول: "بس قول يا رب خد بالك من أمي" وقول كمان: "يا رب النهار يطلع على خير" لكننـي قلت: "يا رب.. خللي إبراهيم عبد المطلب يدن بقى"، فأذن إبراهيم عبد المطلب، وفُتحت دار الحبشي، وتنطعت البهائم من انحبـاس اللبن في الضروع، وحدثت جلبة في الخارج. فتحت بوابة الليـل الكبير مصاريعها فقالت: "دقيقة واحدة.. متخفش.. أوصـل لحـد خالتك هانم" فقلت: لا. ألبستني الشبشب وأخذتنى للخارج ولفتنـي بالشال وأنا أرتعد. كانت تضع يدها في وسطها وتتألم وهي تمـر من شارع لآخر باتجاه هانم فودة وتقول كلما رأتني أرتعد:

ــ مش كنت تقعد ع الفرن في الدفا أحسن؟

تقف فأقف. لا أدرى سبباً للوقوف كأنهـا متعبـة تـستريح، والمارة القليلون هياكل ملفوفة في خرق ثقيلة بلا ملامـح. حـين

مرقت من أمامنا بساقيها الطويلتين وجلبابها الأسـمر بكـرانيش وتلفيعة الرجال حول رقبتها، كانت متعجلة، وبدا أنها لـم تنتبـه لنداء أمي الخافت:

ــ خالة هانم.. خالة ها..

ــ عايزة إيه يا بت؟

ــ كنت عايزاكى تشوفينى.

ــ الضهر وانا راجعة.

ــ والنبي يامه هانم تشوفيني.. دانا هموت.

ــ فيكى وجع؟

ــ ما نمتش امبارح.

سبّتْ هانم فودة ــ ذات الوجه المستطيل ــ بـصوتها الغلـيظ الذين خلفوا أمي وهى تدخن السيجارة بغـضب، إذ تتـشاءم فـي مشاوير الصباح من العودة أو مجرد النظر للخلف، وشدّت نفـساً وهي تفكر، فاشتعلت مقدمة السيجارة، فلعنت أم السجائر أيـضاً، وسارعت إلى إخمادها في الحائط وجذبت أمي. لم أدر إن كنـت قد تركت يد أمي لأن النهار قد شقشق بالفعل فانكشفت الشوارع و الحيطان، أم لأن حديثاً ما كان يدور خافتاً بين هانم فودة وأمـى، حتى أنهما جلستا في الشارع بجوار الحائط. استمر حديثهما الذي خفت كأنهما لا يريدان أن يسمعهما أحد، حتـى أن أمـي مالـت

بالفعل على صدر هانم فودة، وعلى أذنها بالتحديد، فيما ردتا الصباح على من مر عليهما، وأنا أتأمل اختفاء النجوم وبزوغ النهار، ملفوفاً بالشال حول رأسي ووجهي، لا تبين سوى عيناي. اصطبغت صدور السحب بالنور الأبيض والأحمر وبقيت مؤخراتها داكنة، ولمعت أسطح الدور والمقاعد وأبواب الشبابيك الشرقية ذات الحديد المبلل بالندى. تأوهت أمي فجأة "آه يا خاله هانم" فانتبهتُ. رأيتُ هانم فودة تنزع إصبعيها الطويلين ــ مخضبين بالدماء والمخاط ــ من تحت هدوم أمي الجالسة على قرافيصها، وتهب واقفة:

ــ قومي يا بنت الوسخة.. لسه بدري.. وجعك مسافر.

مسحت إصبعيها في ثياب أمي وانطلقت إلى مشوارها، ولم أعرف لماذا شتمت هانم فودة أمي، ولم تقل أمي لماذا تبكى، غير أنني كنت أحس بالأشياء الغريبة ــ و النهار يطلع ــ تتلاشى، وإن ظلت مثل عود كبريت مشتعل بقايا سيجارة هانم فودة المرمية بجوار الجدار.

حلم قصير القامة

شيء ما، غير عجز التلاميذ عن الـرد، دفعنـي لأن أرفـع إصبعي في اللحظة الأخيرة متـردداً، قبـل أن يغـادر المفـتش الفصل. وشيء ما، غير نظرته اليائسة ــ وهو يترك الفـصل ــ جعلته يرى إصبعي ذلك المتردد، فيستدير:

ــ معقولة يا قصير انت تطلع بتفهم وسط ستين بغل؟.. اطلع!

أوسع زميلي بالدكة الأخيرة، ومن طرقة ضيقة بـين صـفي دكك، طلعت إلي السبورة. تفحصني بقرف ولم تزل أشياؤه التـي لمها تمهيداً للخروج تحت إبطه. أشار بكفه الفارغة:

ــ امسك الطباشيرة وارسم.. اكتب.. اعمل أي حاجة.

تلقفت الطباشيرة وأعطيت وجهي للـسبورة. رسـمت جـذع شجرة كبيرة. كانت قامتي قصيرة وأنا أبدأ مـن أسـفل سـبورة سوداء كبيرة. رفعت لأول مرة من شهرين إصبعي، إذ لاح لـي أن الجميع قد نسوا الأمر، وبدا أن ما كان يشغلني لم يعد له وجود سوى في رأسي، وبدت بعيدة جداً ومتناهيـة أصـوات النـاظر ومدرس الألعاب وهو يصرخ وسط الفناء أن الأمر جد لا هـزل، وأن الدنيا تنورت ولسنا في كتاب الشيخ مرسي، ثم يخرجنا مـن الطابور، يفرزنا واحداً واحداً بعصاه الطويلـة، ويلـسع دون أن

ينظر إلى وجوهنا. من تلسعه العصا فالأمر يعنيه ويخــرج مــن الصف. يأمرنا فنعري أقدامنا، لنمر علي الطــابور كلــه، وهــو بعصاه من خلفنا يلسع، ويحذر بأن الغد له تعامل آخر.

كنت أقول لأبي، فيقول: "ربنا يفرجها.. واجيب لك اللي انــت عايزه". ولأنها لم تكن تفرج غالباً، كانت أمي تقول إنها ســتذهب للناظر وتكلمه عن الظروف، لكنها لا تجيء، فيحدث في الفناء ما يحدث كل يوم من كشف عن السيقان والمرور أمــام الــصفوف محدقين في الأرض، ثم الوقوف في الخلف، فلا نرى بعــد ذلــك الفناء ولا الشجرة ولا النخلتين ولا نرد تحية العلم، حتى حدث ما غاب من أجله الأربعة الآخرون، ولم أعد أراهم بعد ذلك.

كانت السبورة ملساء ولامعة، وإصبع الطباشير طيِّعاً، وجــذع الشجرة ضخماً ومجعداً، تتفرع منه تلك الفروع الضخمة وتتجــه بميل لأعلي. كان الظل وارفاً ولم أدر من الــذي كــان ينــاولني أصابع الطباشير الملونة، ولا أصوات من ــ على وجه التحديد ــ تلك التي تشجعني، ولا من أي اتجــاه كانــت تــأتي همهمــات الاستحسان، وبدا أن المفتش قد وضع دفاتره وعدل عن الخروج، حتى أنني شعرت بأن اليد التي تربت كتفي هي يده، وأن ســاقيّ اللتين كانتا تؤلماني انفردتا قليلاً عند الركبة، واستطالت ذراعــاي لتلون الفروع والأوراق، فتتدلى منهــا ثمــار ناضــجة، وهمهــم

المفتش: أين رأى هذه الشجرة.

إذ تطلب الأمر في البداية وقتاً طويلاً، منذ اهتديت وحدي إلي جلباب فهمي المعلق علي الحائط، لأبدو عادياً، فلا يعـوقني فـي السير، وأمر لأول مرة عبر البوابة الحديدية، وأقف في الطـابور وأدخل الفصل دون أن يستوقفني أحد، بدا أن الجميـع ــ النـاظر والعيال وأستاذ الألعاب ــ على استعداد لنسيان الأمر تماماً، علـى أن أقف كل يوم في الصف الأخير للطابور، ثانياً ركبتـيّ قلـيلاً، فلا أرى الفناء ولا الشجرة ولا العلم، وآخذاً ــ بـشكل تلقـائي ــ مكاناً ليس في المقدمة وليس في المؤخرة حين نستدير للفـصول. كنت مرتاحاً أن تمر الأيام على هذا النحـو دون أن يلحـظ أحـد شيئاً، وإن تطلب الأمر جهداً أكبر، حين لم تأتِ أمي للناظر، ولـم يفرجها ربنا ليأتي أبي بكل ما أطلب، حتـى أنـه بـدا يتجنـب مواجهتي بعينيه، متسائلاً بينه وبين نفسه كلما عاد آخـر النهـار دون عمل، إن كان ما يطلبونه مهمّاً في التعليم لهذه الدرجة. ولكم بدوت طبيعياً كولد قصير القامة، متحملاً الألم عند الركبتين، حتى أن مدرس الألعاب والناظر لم يلفت نظرهما الأمـر وأنـا أسـير وأجري وألعب على هذا النحو، حتى حينما لم أكن ألتـزم بـشكل صارم بمكاني في آخر الطابور، أو أرد مختلساً تحية العلم، غيـر أن الجميع حرص منذ البداية على أن لا يتغير مكاني: منتـصف

الدكة الوسطى، في آخر صف.

كيف اتسعت السبورة لنخلتين بينهما علم كبير علــى صــاري يقف على ربوة من أسمنت؟ قلت: هذه مدرستي، وكــان الحبــل النازل من العلم بين إصبعيّ. جذبته فــارتفع العلــم ثــم رفــرف وغطى نوفمبر ولم يبق من التاريخ سوى ١٩٧٠ وميم صــغيرة. حيث كان العيال والطابور والفناء ممتداً، لم أرســم النــاظر ولا مدرس الألعاب، ورسمت لجميع العيال أحذيــة جميلــة وملونــة، وكنت أمسك بالحبل ما أزال حين رفعت هامتي لأعلى وزعقت:

ــ تحيا الجمهورية العربية المتحدة.

ردّد الفصل جميعاً من خلفي، ووقفوا وعظّموا بأيديهم، وكنــت أستطيل وأقبض بكلتا يديّ علي حبل العلم:

ــ عاش الزعيم جمال عبد الناصر.

كيف سكت التلاميذ فجأة وسددوا أعينهم إلــي أســفل، حيــث قدماي الحافيتان تلتصقان بالبلاط، والجلباب ينحسر عن الــسمانة، حتى أن المفتش دفن وجهه بين كفيه، وعيون العيال التي تدمع لم تعد حادة. بدوت خجولا، وعادت ركبتاي إلي الانثناء مرة أخرى، وعاد جلباب فهمي ــ الله يرحمه ــ ليجرجر على الأرض، وأنــا أنكفئ وأحاول النهوض فلا أستطيع، بينما الولــدان فــي الدكــة الأخيرة يوسعان لي وآثار الطباشير في أصابعي.

الركض في مساحة خضراء

أطفأوا النور ــ كما طلبَت ــ وخرجوا، فبدا وجهها العجوز في ضوء الموقد مريحاً. تسربت رائحة البخور المحترق وانتفضت الشبّة. اقتربَت مني وأصرت أن أبوح. كشفتُ لها ظهري وقلت:

ــ يزعجني نباحهم المتصل هكذا وانتشارهم المريب في كل مكان.

ثقبت ورقة بيضاء على شكل عروسة وتمتمت:

ــ هذه العيون تشك وتقلع.

حين ركضت خلفها في القمح المسوّر بالنخيل، كانت تضحك وتزيح شعرها المبلول للخلف وتراوغ. قلت: كفى. ففركت السنابل على كفها وحط الحمام من النخيل الجانبي. قلت: كفى. فركضت منتشية ومالت برأسها الصغير للخلف وغنت:

ــ يا مطرة.. رخي.. رخي.

في اللحظة التي أوشكت أن أمسك ذيل فستانها، بين العشب المبلول والقمح، نشعت منه بقعة حمراء، فكفت عن الركض

وضحكت. أمسكت ذيل فستانها المخضب وقلت: كفى. فأومأت برأسها ثم جلست، وكان الحمام الذي شبع يأخذ أماكنه على النخيل الجانبي، يدس رأسه تحت جناحيه ويغمغم، والناس خلف زجاج القطار الأبيض ــ الذي مر سريعاً ومغسولاً ــ يبتسمون ويلوحون. بينما هي متكئة على العشب تغني، كان فستانها الأبيض المبلول لصق نهديها الصغيرين، والمساحة الخضراء ممتدة.

ــ هذه العيون تَشك وتُقلَع.

مزقوا كل أوراقي الخاصة، ودفعوني نحو الحائط. قلت مُصراً إنني رأيتها بعينيّ هاتين وكان القطار أبيض ومغسولاً. لم يصدقوا فأقسمت ــ وكنت أبكي ــ أنهم بالفعل ابتسموا ولوّحوا من خلف الزجاج، لكنهم مزقوا كل شئ. رسمتها على جدار غرفتي وجريت إلى أمي أهزها متوسلا:

ــ هكذا رأيتها.. هل تصدقينني؟.

ثم هززتها مرة أخرى، فأمسكت ذراعيّ وقالت:

ــ أصدقك.. نعم أصدقك.

ثم بكت.

ــ هذه العيون تشك وتقلع.

على مثلث النجيل المترب جففت عرقي. أفهموني بكل السبل

أن ما قلته مستحيل. قلت: إنني لم أعد أفكر في ذلك وربما نسيت كل شئ، وسألتهم إن كان باستطاعتي أن أتمشى قليلاً، فلم يمانعوا. راودتني رغبة في الركض، غير أن مثلث النجيل كان ضيقاً ومحاصراً بزحام الميدان. حين بدا الميدان خالياً منهم، ركضتُ. رأيتهم يبرزون من حوائط الميدان، وقالت امرأة جالسة على مقعد رخامي: كفى. ركضتُ. نشبوا أنيابهم في ظهري، فقامت مذعورة على ذيل جلبابها الأسود بقعة داكنة. صرخت بأعلى صوتي. ضمتني وقالت:

ــ مالك؟

لم أرد. كان النباح يخفت، والعروسة تشتعل في الموقد، وكانت تتمتم:

ــ هذه العيون تَشُك وتُقلع.

برماد العروسة المحترق، رسمَت على جبيني عروسة، ومرت بكفها على رأسي وظهري، فتثاءبتُ. تثاءبتْ هي الأخرى وشهقت ثم تفت في النار. كانت الشبة السوداء تأخذ شكل الكلاب المتحفزة.

ــ عيون الكلاب تشك و تقلع.

زعقَت:

ــ ادهس.

دهست الشبة بكعبي الشمال، فارتفع النباح المختلط بالعويل ثم انقطع. قالت: كفى. فرفعتُ كعبي، ولمت المسحوق فــي صــرة ورمتها في مفترق شارعين ولم تبسمل. خلف البخــور المطلــق، كان القطار جامحاً ومساحات القمح ممتدة وهــي تحــت المطــر تركض، وسط الحمام المرفرف، علــى ذيــل فــستانها الأبــيض المبلول بقعة حمراء مفروشة.

طائر خفيف

.. وكنا مجتمعين أمام دكانه المغلق، نتوقــع مجيئــه مــن أي اتجاه، مستبعدين أن يكون لما حدث بالأمس علاقة بــذلك، حــين كان يجلس كعادته، على نفس الدكة، ليفصل في مشكلة لــم تكــن عويصة، لكنه على غير العادة استأذن بشكل مفاجئ، مؤجلاً حــل المشكلة لموعد آخر، ثم نفض البالطو وأغلق دكانه ولم يعد. طال انتظارنا فجربنا أن نشتبك، إذ عودنا أن يبرز ـــ لا ندري من أين ـــ في نفس لحظة خروجنا بالفئوس والسكاكين والــشوم، ينــدس بجسمه النحيف وسط المعركة: "أظن يا زفت هتنبسط لما تــدخل السجن وللا عيالك يتيتموا؟!" وينزل كفه علــى صــدغ أحــدنا ـــ الأقرب غالباً ـــ بعشم، فيستسلم الزفت الذي كان هائجــاً ويــسلم السكين، ويقف الآخر كأن ماءً بارداً دُلق عليه، فيرمــي شــومته جانباً، وتتراجع تباعاً إلى حيث أتت أفواج المتطوعين والمجاملين من الجانبين.

تجاوز اشتباكنا مرحلة الهزل، وبدا من الصعب التوقف حــين صارت كفوفنا مؤلمة والضرب حقيقياً، لكنه لــم يجــئ. وكانــت

معاركنا من هذا الشكل تجهض وهي بعد فـــي طـــور الزعيـــق والشتائم فجأة، عندما يتذكر المتعاركون وحـــدهم أن مـــآلهم إلـــى دكته، حيث تنبعث رائحة العطور من دكانه، فينـــصحنا بـــالرفق بالحمير في مسرى والعيال في بؤونه، ويوصـــينا بـــالحريم فـــي المواسم، والموتى في الأخمسة، واليتامى في الأعيـــاد، ويطمئننـــا من الكلاب في الربيع، واللصوص في الصيف، والـــشياطين فـــي رمضان، ويدهشنا بأسلوبه حين يكتب العقود، ويفـــرق الحـــدود، ويقيس المساحات، وسرعته في تحويـــل القـــراريط إلـــي أمتـــار والأمتار إلي أذرع وأقدام، ودقته في تقدير زكاة الأرض والزرع والبهائم، وينبئنا بمواقيت جنون النساء وخـــف الـــزرع وجنـــي المحاصيل، محتفظاً في جيب البالطو بقلم كوبيا ونوتة صغيرة.

وكان قد امتنع تقريباً ــ منذ ماتت الحاجـــة ــ عـــن الأكـــل، وطال شروده على دكته، لا ينغلق دكانه غير ساعة واحدة، يقـــوم بعدها مفزوعاً لصلاة الفجر، فنحفَ جسمه، وكنا نحذره فيـــراوغ: "حلو كده عشان جمعه ميتعبش". وحين قال له جرجس الأجزجي: "واحد وخمسين رطل"، استغرب ثم تذكر أنه وزن نفسه بالعـــصا، فدخل عند دسوقي البقال ووزنها، وضحك لأن العصا كانت ســـتة أرطال، فخلع البالطو ولم يزل على اســـتغرابه، ووضـــعه علـــى الكفة، وضحك دسوقي قبل أن يقول: "حداشـــر رطـــل"، فتنهـــد

بارتياح متحاشياً نظراتنا المتعجبة: "عال كده.. عايزين إيه تاني؟ أربعة وتلاتين رطل.. إيه؟ هننهب؟" وجلس على دكته ليفصل في مشكلة لم تكن عويصة، وضحك كما لم يضحك منذ موتته الأولى، حين بقي في مشرحة المستشفى الأميري ساعتين، حتى نستخرج شهادة الوفاة المعلقة في الدكان حتى الآن، وتحضره سيارة الإسعاف جاهزاً، لولا أن جمعة أبو الجود الذي لا يثق في غسل المشرحة قرر إعادة الغسل، حالما توضب له التربة ويكتب عبد الوهاب مرعي الخطاط على شاهدها اسمه وتاريخ انتقاله، ولولا بكاء الحاجة المتهدج، الذي رقق ــ على غير العادة ــ قلب جمعه، فسمح ــ مقابل أن تكف عن البكاء ــ بأن تلقي عليه نظرة أخيرة، لأن البكاء لا يعيد موتى، فترتمي عليه وهي تقول: "طيب يا جمعه" وتهز ذراعيه المعقودتين أمام صدره: "ده اللي اتفقنا عليه.. كده أهون عليك يا حاج". كانت تهزه وجمعه يجذبها، حتى انتبه كمن يستيقظ، وتلفت حوله كمن يفيق من حلم، لتلمع من لحظتها عيناه كلما حلّفه أحد بالموتة الأولى، ويهز رأسه ويتهدج صوته، ويفي علي أي نحو بما طلب منه، بيد أنه لم ينزلق مرة ليحكي لمخلوق ــ حتى الحاجة ــ عن تفاصيل هذه الموتة، وإن ضغط عليه أحد في غمرة ضحكه واسترساله، يذهب الضحك، ويتوقف الكلام وحده، وتلمع عيناه بدموعه التي صارت

أكثر قرباً منذ موت الحاجة، وتنزل وحدها كلمـــا تـــذكر أن "زاد المال" منعته من رؤية الحاجة ويتمتم: "كان فيها إيه لو بصيت؟"، وتنهمر كلما رفض جمعة أمنيته القديمة، فيتوسل إليه ويجذبه من هدومه كلما قام: "يا جمعة خلليك حنـــين.. أنـــا اللـــي طالـــب.. وهوصي بكده"، فيخلص جمعة جلبابه من يده: "ولو.. ميـــنفعش.. أقول لربنا إيه؟".

بدا أن الاشتباك قد اتسع حتى انتاب بعضنا الـــشك فيمـــا لـــو خرج، فإنه سيصير من الصعب عليه أن يفعل ككل مرة ويخـــرج محفظته، قائلاً إنه من جنيه لألف مع هذا الولد الغلبان، فتسقط ـــ كما حدث بالأمس ـــ المحفظة المنتفخة من تلقاء نفسها، أو ربمـــا بفعل الرعشة التي بدأنا نلحظها أخيراً في يديه، وتمتد أيدينا، فـــتلم ما خرج من أحشائها في دهشة: جريدة قديمة مطوية وورقة فئـــة ربع جنيه، فنضحك فيستأذن بشكل مفاجئ مؤجلاً حـــل المـــشكلة لوقت آخر. لكننا كنا نطرق بابه بلهفة ونتلفت قبل أن يسقط مـــن الكتلة المتعاركة أحد، حتى ارتطمت الكتلة المـــشتبكة ببابـــه فـــي الثامنة والنصف، لنجد الراديو مفتوحا. تخطينـــا أجولـــة البخـــور والنعناع والزعتر والزنجبيل والشاي الأخضر، فوجـــدنا مكانـــه شاغراً، وتسمرت أجسادنا لحظة حين وجدنا الحاجة كأنها نائمـــة في مكانها، دمية بنفس الحجم، بجلبابها زهر الكتـــان، وطرحتهـــا

الحرير، مغطاة بحرام صوفي، ينثني ذراعها على وجهها كأنها تخبئ دموعها المعتادة عندما تسمع "همسة عتاب". ضرب جمعه أبو الجود جبهته كمن يتذكر، وجرى ونحن خلفه نحو المقابر، بنفس الكتلة المتعاركة التي لم يعرف أحد منا كيف انفكت بهذه السرعة وهذا النحو لنرى بأعيننا البالطو والعصا وفردتي الحذاء أمام القبر، وحافة الباب مرفوعة قليلا بما يسمح لطائر خفيف أن يدخل.

المنشغلون

منك لله يا برهومة! كيف انسابت عبر حوائط المسجد أصـــداء نفيرك القديم، فتدب فينا الدهشة وهذا الصحو الغريب ونحن نؤدي بكسل ركعة الوتر ونتثاءب، وتقودنا أصداؤه المتعالية كأنين نـــاي كبير إلي ذات المكان الذي لم نتصور أن يضمنا بعد ثلاثين عامـــاً ــ من مات منا ومن عاش ــ لنلتف حول تعريـــشتك القديمـــة، وسط حقل من العصافير الملونة كان قمحاً منـــذ قليـــل، أخـــضر بسنابل مشرعة؟. منك لله يا برهومة! وكيف أطفأت الكـــون كلـــه لتضيء قطوف العنب المدلاة من تعريشتك، فنرى أنفـــسنا بـــذلك الوضوح ــ كأننا عدنا صغاراً ــ نتزاحم حول نفيرك المنتـــصب أسفل التعريشة، فإذا بك تفعلها وتسحبنا بنفيرك حتى هنا، لتوقعنـــا في حرج مع جمعة أبو الجود بنظراته القاسية التي تتساءل لمـــاذا جئنا، وهو يقلبك في رقدتك هكذا وحيداً، طالبـــا الكفـــن بـــصوته الفظيع، ونصبح كمن وقع في مصيدة، فلا ينفع التـــسحب للخلـــف وأصابعه الممدودة تتلعب متسائلة:

ــ فين الكفن؟

ذيل الكلب لن ينعدل يا برهومة! نتحاشـى مواجهـة جمعـة فتواجهنا به، وتعلم أنه من آخر المستحيلات أن يتبرع أحدنا بخيط في كفن لك، وتضعنا في هذا الموقف المحرج، فهل أنـت سـعيد الآن وأنت بين يديه بينما تفكيرنا منحصر في البحث عـن علـة للخروج، أم تتشفى وهو يوقفنا بذراعيه الطويلتين مستهزئاً:

ـ الكفن يا بني آدمين؟.. حد يجيب الكفن من النفير.

هاأنت تموت ولا تموت ألغازك، فلم تقل لنا إنك اتفقت أثنـاء حياتك مع جمعة أبو الجود وخبأت كفنك داخل البوق وبداخله أجر جمعة، بذات الغموض الذي لم نصل معه إلى جواب حقيقي عمـا كنت تجنيه مقابل سرقاتك الصغيرة، تلك التي تتعـرض بـسببها لضرب يقربك من الموت، حين تفاجأ بنا نبرز لك من كل اتجـاه، فتنكمش، وتتقي بذراعيك لكماتنا، ثم تسقط، فتسقط وحدها الأشياء التي تكون صغيرة في الغالب ورخيصة من بين طيّات ملابـسك: كتكوت صغير أو باكو شاي أو عملة فضية.

واستطعت بخبثك وصمتك أن تغذي الخلاف بيننا إلى درجـة أن يرى عقل قرارنا بمنعك من دخول المسجد ـ قبل أن يـصير فيما بعد صديقك ـ اجتهاداً خاطئاً، فلا أحد يعلم من الذي يتقبـل الله منه، ويدعو إلى الحكمة في علاج هذه الأمور. كدنا نقتنع لولا أن بادر عبد الرحمن الظني بغيرته وحسم الأمر لمّا رآك تتسحب

من باب المسجد فطردك، غير أنك استطعت بغموضك أن تعمق الخلاف حين رآك بعضنا تؤدي الصلاة وحدك على عجل في دارك قبل أن تغادرها، أو في خوف على رأس غيطك، بعيداً عن الأعين كأن أحداً سيخرجك منها عنوة، ليتعمق وحده الخلاف بعد ذلك أكثر حين يروى المعداوى أنه رآك تصلي العصر على شاطئ النهر مخطئاً في التلاوة وفي غير اتجاه القبلة، فأشار لك بالاتجاه الصحيح ثم عبر بالمعدية، فإذا بك تنادي وقد فرشت منديلك على الماء وركبته حتى منتصف النهر ومسكت حافة المعدية لتسأله في أي اتجاه أمرك أن تصلي. يصرخ الظني فينا: "ما اتخذ الله من ولي جاهل" لتنعدل الكفة مرة أخرى، الظني الذي جعلته يعيد الجمعة ظهراً، وفي كل مرة، نسأله يتف على شماله في حيرة:

ـــ مش عارف.. اتهيأ لي إن الواد ابن الكلب النجس ده كان بيصلي جنبى!

فهُيئت لنا كل جمعة، تصلي متوجساً في الصف الأخير قرب الباب، أو في الشارع متخذاً آخر صفوف المتأخرين، محافظاً ـــ كي لا تلفت الانتباه ـــ على عدم التصاق المناكب أو الأقدام، حريصا على ألا يستقيم الصف من عندك، بالرجوع قليلاً للخلف فلا يتعرف عليك جارك، لتكون حين يسلم الإمام أول من ينطلق

للشارع، دون أن يدركك أحد، فأضفنا الطــوب والحجــارة إلـــى شتائمنا واسمك الجديد، وظللنا نصوب نحوك بقسوة وإحكام حتـــى قفزت بكرباجك فجأة بيننا فأصابنا الذعر، وتفرقنا كل في اتجـــاه وأنت تطوح الكرباج في الهواء قدر ما تطول يدك، وتلف جسمك متعمداً أن يطالنا دون أن تقصد أحداً بعينه. ظللنا نجــري ونحــن ننظر نحوك بفزع ورهبة دون أن نصدق أن يكون دماً كل هــذا المتساقط من أنحاء جسمك، حتى أصابنا التعــب فارتمينــا علـــى الأرض، والتقت عيوننا جميعاً بعينيك، وأنت تقترب منا وتبكـــي، لكنك وعلى غير ما نتوقع، لحقت بنا ثم تخطيتنا ــ كأنك لم ترنـــا ــ ولم يكن بيدك كرباج، متجهاً نحو الخلاء، لتقيم في نفس الليلـــة تعريشتك هذه.

مرات قليلة تلك التي كنا نشاهدك تضحك ملء صدرك حـــين تكون مع عقل، تضحكان بقلبيكما لا يوقفكمـــا عـــن الـــضحك إلا ظهور أحدنا. يتوقف الضحك كغصة في الحلـــق، تعتـــدلان فـــي جلستكما، يدور الحديث مصطنعاً وعاديـــاً وبـــارداً وخاليـــاً مـــن الروح. رغم أننا لم نعد منذ فترة طويلة نرى منك ما يـــستوجب الضرب، إلا أننا استبعدنا أن تكف يدك ــ التي تأكلـــك دائمـــاً ــ عن السرقة، واعتبرنا أن جسدك الـــذي اعتـــاد الـــضرب طيلـــة السنوات السابقة قد استساغه وجبة يأخذها كـــل يـــوم، وإن بـــالغ

بعضنا في تفسير جلوسكما عند النفير بأن أحدكما يكيل للآخر كل يوم معلوماً من الضرب المبرح، مقابل أن يؤدي لـــه الآخـــر ــــ نستغفر الله ــــ فعلا تهتز له سبع سماوات.

أنت المتسبب ــــ وليس وخم الربيع الممتزج بـــصيف ــــ فـــي الرخاوة والثقل التي جثمت على أرواحنا طـــوال اليـــوم ونحـــن نتطارح تحت أشجار التوت كمن أكل داتورة ونتساءل كلما نـــادى الظني عقب كل أذان عمن يكون إبراهيم محمد سليمان، ويفرد في كسل كل منا قميصه في اتجاهٍ ظنه القبلة، لنصلي الظهـــر قعـــوداً وعلى جنوبنا، ويخلو المسجد لأول مرة في ثلاثة أوقات إلا مـــن الظني المنطرح هو الآخر تحت مروحـــة الـــسقف منتظـــراً رد برنامج بريد الإسلام على سؤاله العاجل عن حكم صلاة الجنـــازة على اللوطي أو النوري. ولأن ما يؤذي الحي يؤذي الميـــت فقـــد رفض الظني النداء عليك باسم الشهرة، والظنـــي الحـــريص ألا يخطئ أمهلك ثلاثة أوقات، بعدها أذن للعشاء وأقام الـــصلاة. وإذا كنا بالكاد نتذكر أننا صلينا الظهر بالحقول، ولا نعرف أين صلينا العصر والمغرب، فهل كان لنا أن نذكر بعد ثلاثـــين عامـــاً أنـــك إبراهيم محمد سليمان، دون أن ينبعث صوت نفيرك القديم مخترقاً الليلة نوافذ المسجد وحوائطه في ركعة الوتر؟

تعالى الهمس فلم نستطع ونحن خلف عقل للصلاة أو أمامه في

درس المغرب، أن نمنع عيوننا أن تفحصه، تعاين ملامحه التي اقتربت من النساء. بينما نستغفر الله من وسوسة الشيطان تأكد لبعضنا بروز ردفيه، وللآخرين نعومة صوته في التلاوة. ولاح لنا في مشيته المتمهلة عقب الصلاة ثابت الرأس كفتاة تتأود تفاصيل جسدها تحت بلاص ممتلئ، وكان في قعدته ــ حتى في الدرس ــ أقرب لامرأة أمام الفرن. كنا نناقش ما توصلنا إليه ونستبعد ما نراه مبالغة. استغرب عقل من سرحاننا وقلة تركيزنا، فاختصر دروس المغرب، ثم امتنع نهائياً بعد أن وقف الظني الذي تعمد ألا يصلي خلفه منادياً بغضب بينما ينشف الوضوء عن ساعديه وهو يقيم الصلاة على من فاته المغرب أو من ظن أن صلاته باطلة. وجه كلامه نحونا في حلقة الدرس ونوى متوتراً، يطغى الغضب في ملامحه على سكينة الصلاة. طغت نبرات تلاوته العالية على الدرس، فخفض عقل صوته أولاً ثم أغلق كتبه حتى ينتهي من ركعتي الجهر، إلا أن الظني الذي انتهى من الصلاة لم يسترح حتى أبرأ ذمته موجها إصبعيه نحو السقف وكلامه نحو الدرس:

ــ اللهم هل بلغت.. ما يبقاش الواحد متلتل ذنوب وييجي يزودها ويفتي.. كده حرام.. آه.. اللهم فاشهد.

سمعنا ولم نر، ولم يكن لدينا استعداد أن نقبل غير ما

تصورناه: تأكلك يدك يا برهومة فلا تهدأ حتى تلهف شيئا، أي شيء فيضربك أحد كي تهدأ يدك، وعقل تتلوى بداخله دودة طويلة، فيتلوى كامرأة. كيف اكتملت في رءوسنا الصورة: ضرب وتأوه ثم وطء وصراخ، حتى تهدأ اليد التي تصرخ والدودة التي تتلوى تستكين؟ لا تسألنا، فالمتربصون منا والذين في قلوبهم شك لم يظفروا حين اقتفوا أثركما في الحقول وعلى شواطئ الترع وبين عيدان القمح، سوى برؤيتكما معاً عند النفير تضحكان، أو عودته بكتبه تحت إبطه في أوقات متأخرة من الحقول.

حتى النفير الذي نصبه محمد أفندي علوان زمنا ليبعد العصافير عن القمح، كان شاهداً على نحسك، منذ استأجرك لنفخه، أنت الذي لم تفلح في عمل أُسند إليك، وسوف لا ننسى ما فعله بك حسن قصاص الحمير أو الشافعي شامة الذي يدهك الدور أو الغريب مبيض النحاس أو سروحك فيما بعد بعربة الجاز ثم نازحاً للكبنيهات بجردليك المعلقين بعصا على كتفك الأيمن، ثم بائعاً للبطاطا المشوية، والجميز، وكيف يسوقك نحسك ــ كلما ضاقت بك السبل ــ إلى طريقنا فنتتبعك ونفضحك ونضربك. هل عرفت لماذا أسميناك برهومة؟ نفخته فاجتمعت العصافير الملونة من كل صوب ووقفت على عيدان القمح،

أصابت الحسرة محمد أفندي علوان في بطنـــه فأخـــذ يـــضربك بجنون دون أن يعطيك أجرك المتفق عليه: رغيفان وقطعة جبن. وسكت إلى الأبد نفيره الذي سينسب فيما بعد هكذا ببساطة إليـــك، ولن يذكر سوى القليلون منا أنه نفير القـــاطرة ستيفنـــسون التـــي خرجت عن قضبانها لتغرق في الريـــاح التـــوفيقي ببنهـــا فـــي مطلع١٩٠٠، وأن محمد أفندي علوان قد جلبه وأضاف له البـــوق الكبير ليضخم الصوت.

لن تجوز عليك الآن سوى الرحمة، وأنت متمدد فـــي ضـــعف بين يدي جمعة، وقد مرت ثلاثون عاماً على علقتـــك الأخيـــرة، ونحن نطاردك وأنت تقوم وتسقط، مستسيغين اسمك الجديد فـــي الشتائم، فترتبك وتسقط، ليخرج كتكوت يصوصو من جيبك، ومن جيبك الآخر باكو شاي سيلاني، دون أن تستحوذ سرقات أخـــرى كبيرة للصوص آخرين محترفين على رءوسنا مثلمـــا التـــصقت بأذهاننا سرقاتك أنت الذي ترقد الآن بين يدي ربك إن شاء عذبك وإن شاء عفا عنك، وسوف نتداول فيما بيننا لثلاثين سنة أخـــرى، دون أن تخبو، رواية الظني في درس المغرب الذي رآك بعينيـــه اللتين سيأكلهما الدود نائماً على كوم الردم، أمـــام غـــيط جـــارك متظاهراً بالنوم في ظل الزنزلخت، بينما تعبئ في حقيقـــة الأمـــر بيدك ــ التي تأكلك ــ التراب في سيالة جلبابك، حتى إذا امتلأت

السيالة تظاهرت بالانتقال إلي كوم الــردم علـــى رأس غيطـــك، ورقدت على جنبك ثم أفرغتها.

غُرْتَ من وجوهنا كما تغور المياه في الآبار، لتسكن كالجـــان الخلاء والمزارع، واعتزلتنا ليس مهماً برغبة من فينـــا، فلمـــاذا تسري في أحاديثنا وتتمدد في جلساتنا كأنما لا شاغل لنا ســـواك؟ إذ كانت مشكلتك دائماً معنا هي الوضوح الذي ننشده بينمـــا أنـــت تصر على الغموض. لو كنت تتكلم، أو تدافع لهان الأمر، لكنـــك تصمت، ويا ليتك تصمت والسلام، لكنك تثير فزعنا حـــين تنبـــئ بصمتك عما نفعله في بيوتنا، بينما تدّعي العبط والمسكنة وأحياناً الحكمة. لماذا لا تستقر على صورة واحدة؟ هل تستعين بـــأعوان من الجن أو خدام من الملائكة؟ وفيما لا نستطيع أن نـــصدقك، لا نستطيع أيضاً أن نكذب أعيننا التي رأتك وأنت بين يـــدي محمـــد أفندي علوان، يضربك ضرباً مبرحاً وأنت صامت تبكي، حتى إذا بَعُدَ عنك بمسافة قمت غاضباً، ولأول مـــرة نـــراك غاضـــباً يـــا برهومة وأنت تبحث في الأرض عن شيء تضربه بـــه، حتـــى وجدت خشبة، نعم خشبة يا برهومة، مسكتها بيدك وأنـــت تبكـــي وتوجهها نحوه وتقول: "والله لاضـــربك بالنـــار". وضـــحكنا يـــا برهومة، ضحكنا حتى سقطنا على أقفيتنا، إلـــى أن أفقنـــا علـــى صوت النار يخرج من الخشبة إلى قلب محمـــد أفنـــدي علـــوان،

وظللت ممسكاً بالخشبة، ذات الخشبة التي أنقذتك ــ مــع شــهود العيان ــ من الموت على يد الغفر ومخبري المركز.

صرخ الظني: "ما اتخذ الله من وليّ جاهل" فقال عقل معانــداً: "وإن اتخذه علّمه". ولأن العند يورث الكفر فقد لجأ إليــك ليــتعلم منك! وصرتما صديقين، أنت بثيابك المهلهة وهو بعلمــه وكتبــه وهندامه، ولم تأبها بكلام الظني، ليروي المعداوي فيمــا بعــد أن عقل الذي انتصر في البر الآخر في ثلاث وثلاثين مناظرة علــى علماء من مختلف الملل، وقف صامتاً في المناظرة الأخيرة أمــام طلبهم الغريب والمفاجئ، طالباً المزيد من الوقــت. ثــم عــرض الأمر مهموماً عليك يا برهومة، لتشير عليه أن يقبل، وتــأمره أن يلبس أغلى ما عنده ويركب دابته النظيفة لتــسحبها لــه بثيابــك المهلهلة، حتى إذا جاء الموعد وطلبــوا منــه أن يــوقظ ميّــتهم، أوعزت إليه أن يقول بثقة:

ــ لن أنزل لأوقظ ميتاً واحداً، اطلبوا مــن خــادمي هــذا أن يوقظه.

وأيقظته يا برهومة كما توقظ النائم، ليــدخلوا فــي ديــن الله أفواجاً.

كان من الضروري إذن ــ حتى وأنت تــشغلنا فــي ضــوء قطوف العنب المدلاة ككهرمان وجمعة أبو الجود يفحص الكفن ــ

أن نفتش بدأب في كوخك الصغير عن شيء يؤكد ما ذهبنا إليه طوال هذا التاريخ، حتى حدث ما لم نتوقعه، فصديقك القديم عقل، وكما توقع عبد الرحمن، لم يحضر خوفا من عيوننا المتربصة فلا تنفضح مشاعره، وتأكد البناء الذي حرصنا ألا يتهاوى حين رأيناه مضطجعاً في دهليز داره، حوله كتبه المفتوحة، كأنما موتك لا يعنيه، حتى حين دققنا في عينيه الثابتتين والمتحجرتين غير المهتمتين بوجودنا، وجدنا الدم يملؤهما وهما مفتوحتان ومحدقتان للبعيد.

وكان من المنطقي وقد شغلتنا أن لا ننتبه لأسراب الحمام التي كانت تطوف بيننا بأرجلها الصغيرة ولا الإوز العراقي برقابه الطويلة، ولا لسرب الهداهد وأبي فصادة أعلى التعريشة، ولا نرى الكلب والثلاثة أزواج من أبي الحصين، وإن انتبه الكثيرون منا إلي حقل العصافير الملونة الذي كان قمحاً منذ قليل، يتماوج بسنابله المشرعة، بينما تناهى إلى آذان الجميع ــ وبوضوح ــ ذلك النغم المتهادي كنواح ناي كبير من نفيرك القديم، كلما سحب جمعة أبو الجود قطعة من كفنك المكور في بوقه.

المصور يدخل الكادر

كانوا بنظراتهم الزائغة، كأنمـــا يـــسيرون نحـــو المجهـــول. يتطلعون إلي الوراء كفئران تستشعر الخطر. يعتريهم الارتبـــاك وهم يحملون صغارهم وأغراضهم كلما قابلتهم الأرتـــال مرتـــدة ومنهكة، فيبقون على مبعدة من الحـــدود مكدســـين. لا تقـــدم ولا رجوع.

كنت معنياً ـــ من موقعي المرتفع ـــ بالتقـــاط صـــورة كليـــة لحشودهم التي بدت من ارتباكهـــا وتكدســـها بطـــول الـــصحراء كمسيرة ضخمة لا تتحرك، وما إن تبينت من موقعي أن الحـــدود قد أغلقت في وجوههم، حتى قربتُ الكاميرا برشاقة في لقطـــات متفرقة وسريعة، لكسر سكون المـــشهد الكلـــي. اســـتنتجت مـــن ملامحهم المتألمة والمجهدة، أن الذين يئنون تحت صـــفائح الميـــاه والجراكن، هم الشيوخ، بينما النساء يحملـــن الـــصرر ويـــسحبن أطفالاً بدوْا كأنهم يصرخون وهم يرفعون أرجلهم الحافيـــة عـــن رمال ملتهبة، دون أن يكون بإمكانهم التوقف، كبعض المستسلمين في المؤخرة ـــ رغم الهجير ـــ لالتقاط الأنفاس.

صار بوسعي التقاط المشاعر من تعبيـــرات الوجـــوه لحظـــة

معرفتهم بإغلاق الحدود، ولحظة سماعهم للقصف القريب، فبـــدا المعمِّر وهو يتلمس بذراعه المفرودة كتف مرافقه الصبي وبيـــده الثانية العكاز وساقه الممتدة للأمام بمساحة الكادر، كأنه يتحـــسس ــ حذراً ــ طريقاً غير معلوم، ويتلفت للخلف مرهِفاً آذانه.

صحراء ممتدة. لا أول لها ولا آخر. شـــمس حـــادة ورمـــال ساخنة. جموع من البشر في وقفة منتظرة ومرتبكة. كأنما سيرك كبير قد نُصب. من خبرتي الـــسابقة كمـــصور لعـــالم الحيـــوان والكائنات الدقيقة، قطّعت اللقطة الكلية بلقطـــات زووم متفرقـــة، لأتمكن من التقاط العلاقات الصغيرة بين هذه الجمـــوع، فتقـــاطع المتكالبون على الماء مع الفضاء الفسيح، والمتخلفون في المؤخرة مع الساعين في المقدمة، ومن سقطوا تحت الأقدام مع الـــرءوس الكثيرة التي بدت كنقط سوداء. مزجت اللقطتين في لقطة واحـــدة: أقدام حافية وقرص الشمس المتوهج، وعجوز يبلع ريقه بصعوبة مع السراب في الخلفية، وحجران صغيران كأنهما طفـــلان مـــع خلفية ملساء من رمل لم تطأه قدم.

كانت اللقطات لاهثة وسريعة وغير مترابطة لأول وهلة، إلا أنهم بعد فترة بدوْا مـــن إشـــاراتهم وحركـــات الـــشفاه والأذرع الممدودة والكفوف المقتربة والمتباعدة كأنهم يعرفـــون بعـــضهم، ويتفاهمون في الغالب بلغة محلية واحدة، وانتظمـــت مجموعـــات

منهم في صفوف طويلة خلف شخص، يقـوم فيقومـون، يجلـس فيجلسون، ينحني فينحنون برءوسهم نحو الرمال. حتـى الـدواب النافقة والدراجات المرمية والعربات الخشبية والأواني الفارغة لم تهملها الكاميرا، وكما بدت مدهشة رقتهم وهم يضعون صـغارهم تحت خيامهم ومظلاتهم المتفرقة، تجلّت قسوتهم وهم يحفرون في الأرض حفراً كبيرة، يلقون فيها بعضهم البعض ويهيلون الرمال، ثم يعودون فيتعانقون.

منذ متى وأنا مغرم بالتفاصيل الصغيرة؟ كنت أضـع العيّنـة علي الشريحة الزجاجية وأثبّتُ العدسة، فلا أرفع عيني حتى أحدد العدد الإجمالي، وأرصد الحركة الأمامية فقط، وأحـسب النـسبة المئوية للمشوهين، وأحدد نوع التشوه إن كان قطعـاً للـرأس أو قطعاً للذيل، ومعدل الموت في الساعات الثلاث الأولى مـن أخـذ العينة، لأنتهي بكتابة تقرير وافٍ بالعين المجـردة ومـن خـلال التفاصيل الصغيرة لعدسات المجهر الضوئي الثلاث.

قبل أن يصير المشهد مألوفاً، وتعود الصورة إلـى الـسكون، كنت أدور بالكاميرا ماسحاً الفضاء الشاسع والرمال الواسعة بحثـاً عن فريقي الذي سيأتي عما قليل إلى هذا الموقع المرتفع ليزودني بكل ما أحتاجه بعد أن أوشكت أشيائي على النفاد. اصطدمت مرة أخرى بالولدين. كانا بالفعل كحجرين، يبعدان بمسافة طويلة عـن

الحشود، ولا يتجاوز أكبرهما السنوات الخمس. ملأت الكادر بوجه الصغير وهو يبكي ويتلفت. لم يكن حوله سوى رمل أملس، بينما ذراع الأكبر من خارج الكادر تحوط عنقه وتهدئه. لم يكف فربتت اليد كتفه ودخلت إلى الكادر رأس الكبير تقبّله. كأنهما أخوان. أطارد التفاصيل الصغيرة كما أطارد الفراشات ناسياً أن الماء والمعلبات والعصائر والسجائر وبطاريات الصوت والشرائط أوشكت على النفاد ولم يأتِ فريقي بعد.

لم أعد أذكر كم من الزمن مرّ وأنا أنتظر الموت عطشاً، ولا متى نفدت البطاريات ولا شرائط التسجيل، ولا متى كفَّ هاتفي عن الإرسال والاستقبال. شغلتني التفاصيل فلم أنتبه إلى أن كل شيء ينفد من تحت يدي، وكان عليّ أن أحاول الاتصال مبكراً بزملائي في البعثة أو من بعثات أخرى، لكن ارتفاع الموقع الذي أشرف منه على المشهد كله، والمؤن التي كانت معي، وسحر المنظر العام هو ما خدعني.

كان عليَّ أن أهبط عن صخرتي العالية وقد تصورت أن احتمالات الموت القادم لا محالة قد تكون أقل وسط بشر كهؤلاء عنها فوق الصخرة. هبطت ففقدت الاتجاهات. تلاشت الحشود التي كانت قريبة بالمنظار، وبدا الموقف ــ وأنا أغوص بالرمال ــ أشبه بمتاهة، وخيّم شبح الموت أكثر من أي وقت مضى عندما

رأيت صديقيّ الصغيرين كأنهما نائمان، يحيط أحدهما الآخر بذراعه، والنسور الهائمة تحوّم حولهما، وقد جمدت ملامحهما تماماً، وذيلا جلباباهما الأبيضان ينحسران عن ساقيهما.

كلما اقتربتُ من الماء بعُدَ، وكنت ما أزال أعي أنني بسيري خلف الماء أبتعد عن الحشود، لكنه العطش. طالت المتاهة، وخُيّل إليّ أنني عدت طالباً، وأنني أنهيت للتوّ دراسة الطب. هل أبحث عن ماء أم أبحث عن عمل؟ في معمل التحاليل الطبية، قال صاحبه: كم تريد؟ قلت: أشرب. فاستغنى عن خدماتي ثم أنزل زجاجة الماء المثلج عن فمي فارغة. دخلت المحطة كمصور متخصص في الطفيليات والكائنات الدقيقة، والتقيت بجليسة أطفال فتزوجتها، ولم تحمل فقلت لطبيبها المعالج: أين الخطأ إذا كان كل شيء جيداً علي الشريحة الزجاجية؟ رفع عينه عن المجهر وقال: انظر.. الحركة الأمامية مرتبكة. فقلت: لا، هذا رد فعل طبيعي، فقد وضعت على حافة الشريحة حاجزاً دقيقاً، فاكتشفته الحيوانات المنوية فارتبكت حركتها تماما. رد فعل طبيعي، وكان عليه مراعاة أن العينة على شريحة وليست في موضعها الطبيعي المؤهل لاحتضان هذه الحيوانات وتوفير الغذاء لها، ذلك الموضع الذي يوفر لها حياة إضافية قد تمتد إلي أربع وعشرين ساعة، وبدلاً من أن يبحث عن إجابة لسؤالي المعلق، أوعز إلي صاحب

المعمل بالاستغناء عن خدماتي. ظل طبيب زوجتي الممتعض دائماً من حُبّي للتفاصيل، يؤكد أن امرأة بهذه الأنوثة، وهذا الانتظام في الدورة الذي تضبط عليه ساعتك، وتلك الأنابيب السالكة، لا يمكن أن يكون السبب منها، وأوصاني بعدم مغادرة البيت في اليوم الرابع عشر من بداية حيضها، لكنها بالرغم من ذلك لم تحمل. رافقت بعثات علمية وتليفزيونية في مناطق كثيرة، ولم يعد سوى التليفون الذي يربطني بجليسة الأطفال.

على أحجار كبيرة ملقاة وسط الرمال، كعلامات طريق متعرجة وأحياناً مستقيمة، كنت أتنقل من حجر إلي آخر. أتعب وأستريح وسط الهجير على أحد هذه الحجارة الصخرية، حتى فزعت حين دققت النظر فرأيتُ ذراعاً يأتي من تحت الأحجار. قمت فزِعاً حتى أنني سمعتُ بأذني هذه تأوهات قادمة في نهاية الأحجار.

قبل أن أنتبه إلى حشدهم المنتصب، كانوا يصبون نقاط الماء بحذر في فمي كي لا أموت، بدا كأن ما رأيته ـ قبل هذه النقاط ـ كان حلماً، غير أنني وجدت نفسي على شفا حفرة خالية وحجر، وهم يتفاوضون بشأني. وحين شعرت بلمس القطرات لفمي، انتبهت ونظرت إليهم، ففرحوا جميعاً وأخذوني بعيداً عن الحفرة، وكانوا يتهجدون ويصرخون كأن معجزة حدثت.

فيما بدا أنني تماثلت للشفاء، كــانوا يــضعون بفمــي بعــض الأعشاب الخضراء، وبعض حبيبات شعير، ويحتــشدون حــولي باستغراب. لا يفزعني من بعيد سوى أصوات القصف التــي لــم تعد تلفت حتى انتباه الأطفال ذوي الجلابيب القــصيرة، أو تــؤثر على برامجهم اليومية وهم ينتظمون حول معلمهم المعمّــر فــي دائرة، يحفّظهم بلغتهم المحلية نصوصاً دينيــة يرددونهــا خلفــه. بعدها ينطلقون في سباق من نقطة بعيدة حتى معلمهــم، وذيــول جلابيبهم البيضاء ترفرف أعلى ســيقانهم الحافيــة علــى رمــال حامية. كنت بينهم أرتدي الجلباب الفضفاض. أغطي رأسي بهــذا الغطاء الأبيض، وأصفق بحماس وسط جموع الواقفين للمتسابقين الفائزين. لا أنتفض رعباً إلا حين يأتي القصف، فيطمئنني المعلــم الذي بدا كشيخ قبيلة، ويسند ذراعه على كتفــي وبيــده الأخــرى العصا. استمر السباق لفترة طويلة، حتى اكتــشفت أنــه ينــاولني العصا، ويرفع يده عن كتفي في كل مرة ليصفق وينطــق باســم الفائز قبل أن ينتهي السباق. وحين اقتربت ببصري من ملامحــه مستغرباً من حدة بصره، فاجأتني عيناه المطفأتان.

الفهرس